روايات احلام

انتظـــري !

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

انتظري!

بعدما أُدينت إيريس بجرم لم ترتكبه، تعودت أن تكون منبوذة لا يأويها مكان ولا عنوان... لهذا لم يصدمها كثيراً أن يطردها كوبر برتسوم بدون رحمة من مزرعته!

...عندما ابتعدت وقف كوبر يراقبها تصارع العاصفة القادمة وبدأ ضميره يؤنبه... سيحاول إعادتها قبل أن تطمرها الثلوج شرط أن تخضع لقوانينه الخاصة: لا تسرقي! لا تعبثي! لا تقتربي من ابنتي!... ولا تقتربي مني!

...أوليست العاصفة الثلجية أرحم من الشرط الأخير؟!

www.rommanat.com

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٧٥ ل.س.	قطر ١ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ٢ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ ذهبت مع الريح

كانت الرحلة في الباص إلى مزرعة برتسوم التي تبعد خمسة أميال شرق «ريدهورس» «وايوفنغ» طويلة ترهق الأعصاب. . ولم يتوقف الباص إلا مرتين حتى يصعد المزيد من الركاب.

كانت ايريس برايبون محجوزة في مكان مغلق لما يقرب الأربع ساعات.

أخرجت من جيبها ساعة أبيها القديمة، وتفحصتها مجدداً، إنها تكره عقرب الساعات الذي يبدو وكأنه لا يتحرك أبداً. . ثم أعادتها والسأم يتملكها إلى مكانها، ومسحت كفيها ببنطلونها الجينز ونظرت مجدداً إلى المركبة نصف المزدحمة.

كيف ستتمكن من تحمل المكان في الخارج إذا لم تكن قادرة على تحمل الوجود في مكان مغلق؟

أغمضت ايريس عينيها، وأخذت نفساً مرتجفاً. كان قلبها يخفق بشدة. . والإحساس المفعم بالسقم والأسى يزداد وضوحاً. . لقد مرت بهم المركبة من «ردهورس» منذ بضع دقائق، ولم تعد المزرعة تبعد غير ميل على الأكثر.

لم تشعر بالارتياح الذي كانت تتوقعه لدى رؤيتها باب المزرعة الحديدي. كانت متوترة الأعصاب. . ارتدت سترة الجينز والباص يبطىء سيره ثم يتوقف إلى جانب الطريق العام، فالتقطت قبعة رعاة بقر سوداء كانت بحوزتها ومدت يدها لتأخذ حقيبة الكتف.

ما كاد الباص يقف، حتى استوت على قدميها ولبست القبعة فوق

شعرها الأسود، المترامي بجديلة كثيفة حتى منتصف ظهرها.. وهي في طريقها إلى الباب وضعت حمالة الحقيبة على كتفها، وعيناها متجهتان إلى المخرج الذي لم تكن قادرة على الوصول إليه بسرعة.

ما إن أصبحت في الخارج حتى أحست بلسعة هواء باردة، وتنفست أنفاس الربيع والحرية بعمق.. الحرية.. ربما ستشعر بها مجدداً هنا، وربما ستتذكر كيف هو الإحساس بالهدوء والاسترخاء.. أن تستلقي بسلام، أن تدخل وتخرج كما تشاء.. أن تستعيد كرامة بسيطة انتزعت منها بكل قساوة.. ولذة الخلود إلى نفسها، كم أصبحت نادرة وتتشوق إليها، مثل بقية الحاجات الأساسية التي هي جزء من الحرية.

انتظرت حتى ساعدها السائق في إنزال حقيبتها القماشية وحقيبة الملابس من قسم الحقائب في الباص.. كان على منظر الطريق الداخلية المعبدة بالحصى التي تبدأ تحت قدميها وتختفي فوق مرتفع الأرض الممتد أمامها، أن يعطيها الإحساس بالراحة.. لكن ذلك لم يحدث لأن ثقتها بنفسها كانت متزعزعة.

أغلق السائق باب الحقائب وأشار برأسه إلى الحقائب التي على الأرض:

ـ ها هي حقائبك سيدتي.

ثم نظر إلى الطريق نحو المزرعة:

ـ يبدو أن أمامك مسيرة طويلة، وهناك عاصفة سيئة قادمة.. هل يتوقع أحد وصولك؟

أثارها السؤال، لكنها أجابت بأدب، وبجواب غير صحيح:

ـ سيحضر أحدهم بعد قليل.

ـ حسن جداً إذن.

صعد إلى الحافلة وأقفل الباب وراءه.

أصغت إيريس إلى هدير الباص وهو يبتعد... أخيراً أصبحت وحدها.. فأحست بالانتعاش يتنابها في موجة بدأت عند ركبتيها.

لم تتقدم لتأخذ الحقائب وهي تصغي إلى هدير الباص وهو يختفي..

وحين غاب، صار رفيقها الوحيد عويل الريح وهي تنفث سحباً رمادية عاصفة عبر السماء.

جمدت الدموع في مقلتيها.. استدارت ببطء، وراحت تنظر خلال التلال البعيدة التي لا يفصل بينها أيُّ معلم أو حدود.. لم يكن هناك أثر لسكن بشري، ولا حتى لجواد أو رأس ماشيةٍ واحد.

عمت السكينة أرجاء المكان ما جعلها تنسى التعب من الازدحام وضغط الناس. هذا ما تحتاجه منذ أمد بعيد.. الفضاء الواسع والهواء النقي... أن تحس بالريح على وجهها، والحصى والغبار تحت قدميها، والسماء اللامتناهية فوق رأسها.. في هذه اللحظة، لم تعد تهتم إن كان ثمة سقف فوقها، أو جدران من حولها... حتى الطعام والشراب كانا أمرين ثانويين نسبة إلى الشوق الذي تحسه، بكونها امرأة حرة.

أخيراً استدارت على الطريق الطويلة، نحو المزرعة.. كان العمل الذي وعدها به المحامي أليك فارنغورن ينتظرها في مكان ما فوق ذلك التل البطيء الانحدار.. هذا إن استطاعت اكتساب موافقة مالك المزرعة الذي له القول الفصل بعد نهاية تجربة هي عبارة عن أول أسبوعين.

التقطت إيريس حقيبتيها متهيبة لقاء كوبر برتسوم وجهاً لوجه، وأخذت تسير صعوداً فوق الطريق.. وقد شجعتها رؤية المنزل ومباني المزرعة الواقعة في واد واسع خلف قمة التل.

مباني المزرعة مبعثرة بطريقة عشوائية، لكنها كانت مع الزرائب في حال ممتازة ومعظمها مطلي بالأبيض. بدا منزل المزرعة المؤلف من طابقين، والمبني من جذوع الشجر والحجارة، والمنتصب إلى جانب مباني المزرعة، بدا وكأنه برج مراقبة مرتفع عن الجميع. أدهشها منظره وأكّد إحساسها بأنه البيت الذي كانت تتصوره.

كان منزل عائلتها كذلك مبنياً من جذوع الشجر، المشهد كان له الإحساس عينه بالدفء والعائلة فارتفعت معنويات إيريس.. وأحست فوراً أن كوبر برتسوم لا بد أن يكون رجلاً عاقلاً منصفاً مثل صهره المحامي

أليك.. وأن مزرعة برتسوم قد تكون مكاناً مناسباً لتشفى فيه من محنتها وتستعيد حياتها مرة أخرى.

المسافة من هناك إلى المنزل الرئيسي لم تكن طويلة جداً.. ووضعت إيريس حقائبها في نهاية الشرفة المسقوفة، غير متأكدة من الاستقبال الذي ينتظرها، بالرغم من تطمينات أليك. ثم تقدمت إلى الباب الأمامي وقرعته.

ـ من أين أتيت.. بحق السماء؟

نظرت المرأة المتوسطة في السن التي فتحت لها الباب، إليها بعجب، ثم رسمت ابتسامة ترحيب خفيفة على وجهها المستدير.

ـ لم أسمع صوت سيارتك.. ويبدو أن الكلاب لم تسمعه كذلك.

نظرت المرأة خلف إيريس تبحث عن سيارة.. قطبت جبينها لكنها لم تر شيئاً.. وقالت إيريس بسرعة:

ـ أنا إيريس برايبون.. وأنا هنا لرؤية السيد برتسوم بخصوص عمل.

ـ حسن جداً.. لا بد أنك الفتاة التي قال أليك إنها ستأتي في مطلع الشهر.. اسمي إليانور ڤيرنيش.

واتسعت ابتسامة المرأة وهي تمد يدها لتصافح إيريس وتكمل:

ـ أنا أعتني بالجميع هنا منذ وفاة السيدة برتسوم قبل تسع سنوات.

هزت إيريس رأسها.. لكن البسمة الشاحبة التي رسمتها رداً على ترحيب المرأة، جعلت الأخيرة أكثر لطفاً.

حركت اللهفة أعصاب إيريس.. فهل ستتمكن المرأة بمجرد النظر إليها أن تعرف أين أمضت السنتين الماضيتين؟ سوف تحمل وصمة العار هذه إلى ما تبقى من حياتها. أحست وكأن التفاصيل المخجلة مطبوعة بأحرف حمراء كبيرة على وجهها، ما جعلها مرتبكة طيلة الوقت.

دعتها مدبرة المنزل إلى الداخل وأقفلت الباب قبل أن تستدير وتقودها عبر المنزل.. كانت إيريس مشغولة الفكر ولم تستطع التركيز تماماً على حديث المرأة اللطيف.. كل ما استطاعت فعله كان رداً مهذباً من حين

لآخر، وهي تفك أزرار سترتها بأصابع مرتجفة.

كان يجب أن يشعرها فناء المنزل الكبير بالراحة والأمان بأثاثه الخشبي والجلدي الثقيل، والديكور الخاص بغرب أميركا.. لكنها الآن، وقد دخلت بعيداً عن الهواء الطلق والأرض المتسعة، شعرت بالضغط القاسي الذي أحست به في الباص يعود إليها مرة أخرى. وكأنها فقدت فجأة قدرتها على تحمّل كونها في مكان مغلق.. وأرعبتها الفكرة.

كان الباب العريض الذي قادتها مدبرة المنزل نحوه مفتوحاً، فتوقفت إيريس عند الباب مع المرأة الأخرى التي أعلنت وصولها:

ـ كوپر.. صديقة أليك هنا.

لدى سماع كلمات مدبرة المنزل، رفع الرجل الجالس وراء طاولة الكتابة رأسه عن صحيفته، وخطوط وجهه المتصلب تدل على كل شيء عدا الود.

مزاج كوپر برتسوم لا يشبه أبداً مزاج صهره.. وإذا كانت ملامح وجهه التي أثرت فيها عوامل الطقس، من حاجبين أسودين فوق عينين سوداوين ضيقتين، إلى فم رجولي صارم وفك قوي، ناهيك عن شعره الأسود الكثيف الطويل، كلها تدل على نوع الرجال الذين ينتمي إليهم كوپر برتسوم، فإن أيامها في المزرعة ستكون محدودة.

رجلٌ حوى وجهه مثل هذه القسمات المحددة بدقة، لا بد أن له تصرفات محددة كذلك، وأحست إيريس إحساساً غريباً.. فإذا كانت قد قرأت شخصيته من أول انطباع بشكل صحيح، فلا سبب يدعوها للاعتقاد أن هذه التصرفات القوية ستتغير يوماً أو تنحني كي تمنح منّة لأي كان.. وبكل تأكيد، ليس لها.

لم تستطع منع نفسها من أن تتذكر أن الدولارات الخمسين التي قبضتها هذا الصباح لن توصلها إلى مكان بعيد إذا غيّر رأيه حول توظيفها.. بل الواقع أنها إذا فقدت فرصتها بهذه الوظيفة، فهناك إمكانية أن لا تحصل على أي عمل في أية مزرعة أخرى في المنطقة.. وإذا لم تجد وظيفة...

ـ إذن.. أنت صديقة أليك؟

بطريقة ما عرفت قبل أن يتكلم أن صوته سيكون منخفضاً وأجشّاً، كأنه لم يتكلم بشكل هادئ من قبل.. كان من السهل أكثر أن تتصور هذا الصوت الأجش العميق مرتفعاً في حالة من الغضب، يرعد في إعطاء الأوامر.

قال وهو يشير إلى مقعد أمامه، لحظة خروج مديرة المنزل وإغلاقها للباب:

ـ هيّا.. اجلسي.

راقب كوبر إيريس وهي ترفع يدها لإزالة قبعتها السوداء كاشفة عن شعر بني مجدول، يحيط بوجه ذو ملامح لا يمكن اعتبارها إلا كلاسيكية.. كانت بضع خصلات مجعدة من شعرها، قد أفلتت فوق صدغيها، مما جعلها تبدو فتاة صغيرة لا امرأة شابة.

لكنه اتجه ينظر إلى الأسفل نحو سترتها الجينز المفتوحة، وإلى جلد حذائها عالي الساقين.. فأعجب بما رآه منها... إنها امرأة من النوع الذي يجعل كيس العلف يبدو مثيراً عليها.. داعب ذلك مخيلته أكثر مما يجب.. رفع نظره مجدداً إلى وجهها والتوتر باد على محياه.. إنها هنا لتعمل لديه ولا مصلحة له في ملاحظة أي شيء ما عدا مؤهلاتها للقيام بالعمل.

تقدمت إيريس من الكرسي الذي أشار إليه دون أن تعي أنه تنبه إلى كونها قد ألَمَّتْ بمحتويات الغرفة وهي تتقدم نحوه.. في العادة، حين كان يقابل موظفاً مرتقباً، كان يشعر بدرجة محددة من التوتر، خاصة إذا كان المتقدم شاباً غضاً.

لكن في إيريس برايبون شيء مختلف لم يستطع تحديده على الفور.. كامن في الطريقة التي تتحرك بها مسترخية الأطراف بعفوية.. طريقة ذكرته لسبب ما بمهرة كان يمتلكها منذ بضع سنوات. كان في المهرة نزعة برّية قوية، حاول جاهداً التخلص منها. كانت تملك موهبة حقيقية لأن تكون هادئة وقورة في لحظة، ثم تنفجر في نوبة من الغضب في اللحظة التالية، لأي سبب

كان ولو صغير.. في نهاية الأمر، تخلى عنها وباعها لأنها كانت أخطر من أن يستبقيها.

شيء ما في إيريس برايبون، أعطاه الإحساس ذاته.. شيء أبعد من الوجه الجميل وقسماته الدقيقة ووهج الورود على خديها بسبب الريح.

كان بإمكانه تقريباً أن يحس ذلك الشيء في اللون المذهل لعينيها الزرقاوين، برموشهما الطويلة القريبة من السواد.. وضبطه يحدّق بها، فأشاحت بناظريها عنه.. بعد تلك اللحظات القليلة، لم تعد تسمح لعينيها بمواجهة عينيه الأمر الذي جعله يبدو مرتاباً حقاً.

مال بكرسيه إلى الخلف، وسألها:

ـ حسناً.. منذ متى تعرفين أليك؟

ـ عرفته منذ سنتين ونصف تقريباً.

تركت ذراعيها ترتاحان فوق جنبي المقعد، وشبكت أصابعها باسترخاء بعد أن مالت براحتيها إلى الأسفل.

ـ إذن ربما تعرفين شقيقتي بروك.

وكان هذا افتراضاً جعلها تقلق.

ـ أنا لم ألتق شقيقتك.

كلماتها أدهشته بوضوح.. وبطريقة ما عرفت أنه ما كان ليذكر أخته لو أنه يظن أن علاقتها بصهره كانت علاقة محام بزبون.. وأذهلتها الفكرة، فقد كانت تظن أن كوبر برتسوم يعرف كل شيء عنها، ووافق على استخدامها لفترة تجربة.

لكنها وقد أصبحت الآن معه وجهاً لوجه، فقد أحست أنه لو قيل له كل شيء، لما كان يعطيها الوقت أو يوافق على استخدامها.. والقليل من مالكي مزارع الماشية قد يفعل ذلك.. لماذا فعل أليك هذا؟ حضرت نفسها للأسوأ..

قالت بهدوء:

ـ كنت زبونة لديه.. لقد مثلني في المحكمة منذ سنتين تقريباً.

ارتفع حاجباه:

ـ لكن أليك يتولى في العادة قضايا إجرامية.

فهمت إيريس السؤال الذي لم يتلفظ به بوضوح، فنظرت مباشرة في عينيه للحظات.

ـ هذا صحيح.

جمد كوبر مرتاباً.. حين اتصل به أليك كان هناك بعض المشاكل في الاتصال الهاتفي ـ وهذا أمر يحدث في العادة ـ حتى أنهما اضطرا إلى إنهاء المخابرة واضطر أليك للاتصال مجدداً.. وبما أن الاتصال كان أوضح قليلاً من جهة كوبر هذه المرة، فقد فهم أن أليك يعرض إرسال امرأة شابة للعمل لديه في المزرعة.

وبما أن أليك هو زوج أخته، فقد رأى أن يوافق على استخدام إيريس برايبون بدءاً بفترة تجريبية.. لقد اعتقد أن أليك كان يحاول أن يشرح له بعض المشاكل التي واجهتها منذ سنتين، لكن الاتصال أخذ يزداد سوءاً، وأصبح من المستحيل أن يسمع ما يكفي من التفاصيل، لتكون لديه فكرة واضحة عن ماهية هذه المشاكل.

نفد صبره بسبب أعطال الهاتف، وظن أن المشكلة لم تكن شيئاً يذكر، فطلب من صهره أن يرسل المرأة إلى المزرعة.. وتذكّر كذلك أنه استغرب شكر أليك لإعطائها الفرصة، لكنه صرف النظر عن الفكرة يومها.. أما الآن، وهي تجلس أمامه، فقد تساءل بماذا كان يحاول أليك إخباره.

لم يكن هناك الكثير الذي يستطيع أن يستخلصه من قسمات وجه إيريس المغلقة.. لكنه أحس بالبرود والتباعد، وبهالة من الانطواء على الذات، فقد كان هناك قسوة في الطريقة التي تتماسك فيها.. وكان التحدي بادياً في مستوى رأسها المرفوع وممتزجاً بشكل غريب مع لمعان قلقٍ صغير في عينيها.

لقد شاهد مثل هذه النظرة من قبل.. مرتين على وجه التحديد. ولم تعجبه رؤيتها في ذلك الوقت وكذلك الآن.. علمته الخبرة بضع دروس قاسية، دروس لم يكن متشوقاً لتكرارها، برغم من رغبته في إسداء خدمة

لصهره.. وإذا كانت هذه الهواجس صحيحة، فهو لا يريد شيئاً من إيريس برايبون.

ـ هل يعني هذا أن صهري الذي لا يتعامل إلا مع القضايا الإجرامية، قبل بك زبونة عنده؟

أصبح صوت كوبر أكثر قسوة..

رفعت ذقنها أكثر قليلاً، وأرغمت عينيها على التحديق بعينيه:

ـ أجل.

التوى فمه بغطرسة مهينة:

ـ وهل كسب الدعوى؟

فجأة، وجدت جو الغرفة خانقاً.. سيكون كوبر برتسوم أوّل شخص خارج السجن تعترف له بإدانتها. وكان هذا صعب أكثر مما تخيلت.

ـ لا.. لقد سجنت لسنتين.

اشتدت قسوة وجه كوبر: لماذا؟

كان السؤال رسمياً تقريباً.. وربما ممزوجاً ببعض الفضول.. قبل أن يرفض توظيفها.. خطر ببالها أن تصر على أنها كانت بريئة.. لكن القليل من الناس يصدقون ادعاء محكوم.. ولن يكون كوبر برتسوم مختلفاً.

ـ سرقة المواشي.

تعلقت الكلمات في الهواء.. وارتفع الاحمرار إلى وجه كوبر الذي لوحته شمس الشتاء.. مع ذلك لم ينفجر غضباً كما توقعت.. لكن كلماته كانت قاطعة وهو يقول بهدوء:

ـ لقد كانت لي تجربة مريرة مع محكومين سابقين.. وتلك التجربة ستجعلني أرفض توظيفك. إن استخدام محكومة سابقة مدانة بسرقة الماشية، سيكون غباء كاملاً من جهتي.. بسبب المتاعب التي كنت أعاني منها هنا في السنة المنصرمة، فالسارق الوحيد الذي أريد وجوده على أرضي، هو المكبل بالأصفاد، والماضي في طريقه إلى سجن المقاطعة.

ـ وماذا لو عرفت التفاصيل سيد برتسوم؟

كان سؤالها الهادىء اختباراً لإحساس العدل كما كان طلباً للفرصة الأخيرة. . أعطاها التواء شفتيه الساخرتين، رده قبل أن يتكلم.

ـ لا بد أن الأدلة ضدك كانت مقنعة. . فأليك جيد جداً في عمله، ولن يترك بريئاً يدخل السجن.

دفع مقعده عن طاولته ووقف. كان له كتفان عريضتان وجسم قوي البنية يزيد طوله عن الأقدام الستة يكفي ليشعرها بالخوف.

لكنها حاولت مرة أخرى:

ـ إذن لماذا تعتقد أنه أوصى بي لفرد من أفراد أسرته؟ إذا كان يعتقد أنني كنت مذنبة، ألا يشبه هذا إرساله ثعلباً لحراسة خم دجاج؟

لم يؤثر عليه منطقها.

ـ إنك شابة صغيرة، ولربما اعتقد أنك تعلمت الدرس. لكنني أحكم بأحكامي الخاصة. . وأسمع الدفاع بنفسي. . وأنا لا أدير فندقاً.

وقفت إيريس. . وببطء عنيد أزاحت عينيها من عينيه وهي تتقبل رفضه لها. . لن تتوسل لأجل العمل. منعتها كبرياؤها من إظهار أي أثر لخيبة الأمل التي تحس بها وهي تهز رأسها، وتستدير لتترك الغرفة.

ما أن أدارت ظهرها حتى أكمل:

ـ أعتقد أنك ستجدين أصحاب المزارع الأخرى في المنطقة يتصرفون مثلي.

على الأقل، أعطاها تحذيراً عادلاً، ولو أنها تعرف أنه لا يقصد أن يساعدها. . فمالها قليل ووقتها محدود.

كانت إيريس قد قطعت الردهة عبر غرفة الجلوس إلى الباب الأمامي حين خرجت فتاة صغيرة ذات شعر أشقر قصير مربوط إلى الخلف، من خلف زاوية المطبخ. . أجفلت إيريس ولم يكن لديها الوقت لتبتعد عن طريق الطفلة المندفعة. . صدمها جسم الطفلة الصغير فجأة ما جعلهما تفقدان توازنهما للحظات، لكن ردة فعل إيريس السريعة منعتهما من الوقوع، وأمسكت بكتفي الطفلة الصغيرتين.

نظرت إليها الصغيرة بعجب: من أنت؟

أجفلت إيريس لجرأة الفتاة، وترددت قليلاً:

ـ إيريس.

ـ إيريس من؟

سمعت إيريس حركة وراءها في الردهة، ورعد صوت كوبر:

ـ لا تشغلي بالك أيتها السيدة الصغيرة.

ـ أوه دادي. . أنت تقول هذا دائماً.

أكدت نظرة سريعة لقسمات وجه كوبر الحديدية لإيريس أنها على حق في كونه مرتبكاً. . فقد كان الغضب يتراقص في عينيه السوداوين وهو يمد يده لينتزع ابنته من يديها.

حدقت إيريس به مصدومة من حركته التي تدل على أنه يعتبر كلامها القصير مع ابنته ملوثاً لها. . هل ستكون ردة فعل الجميع نحوها هكذا؟ وكان الرد على سؤالها في خشونة وجهه.

ارتبكت لحظة، إلى أن صلبت الكبرياء قامتها. لقد عانت الكثير في السنتين الماضيتين كي تسمح لكوبر برتسوم أن يخيفها.

اختفت أفكارها خلف الواجهة الزجاجية الرقيقة، واستدارت لتتجه بوقار إلى الباب الأمامي، ثم خرجت.

في الخارج، ولأن الهواء كان بارداً، زررت معطفها، وحملت أغراضها من الشرفة المسقوفة. . كان الطقس ينذر بدنو عاصفة ثلجية ربيعية، واستطاعت أن تشمها مع الهواء، وبدأت السماء المكفهرة تنقلب إلى لون رمادي قاتم، لكن توترها منعها من التفكير كثيراً بالطقس، وما إذا كان بالإمكان الوصول إلى البلدة قبل سقوط الثلج.

راقبها كوبر من خلف الأبواب الزجاجية الأمامية وهي تقترب من قمة التل المرتفع بين منزله والطريق العام، لم يكن يوماً قاسياً عمداً نحو أي شخص في حياته. . خشن، ربما، أو حتى عنيد. لكن وهو يراقبها تبتعد، محملة بما بدا أنه كل ما تملك في العالم، أحس وكأنه ركل كلباً شريداً لمجرد

تقدمه من باب داره طلباً للفتات. كان من غير المألوف أن يفكر بذلك.. خاصة وهو على حق في أن لا يستخدم أمثالها.. سيدة تسرق المواشي، خارجة من السجن حديثاً، حتى أن حبر أوراق إطلاق سراحها لم يجف بعد.

مع ذلك، لحظة خرجت من بابه، سارع للاتصال بصهره متلهفاً أن يسأله عما عنته بقولها إنه لم يكن مقتنعاً بأنها مذنبة، لكن أليك لم يكن موجوداً في البلدة ولن يعود قبل نهاية الشهر.. ولم يكن كوبر يعتقد أن المكالمة مهمة جداً ليترك رسالة مع السكرتيرة.

الأمر يناسبه تماماً، قال ذلك لنفسه مطمئناً، فقد اتخذ قراره..

هزت هبة ريح باردة الزجاج أمامه، وأكمل مراقبة الجسد المبتعد يحوّل الحمل من يد إلى أخرى، ليرفع اليد الفارغة ويشد القبعة فوق الرأس اتقاء للريح. لا شك أن الثلج سيتساقط مع حلول المساء.. عاصفة ثلجية حقيقية إذا صدقت تقديرات الأخبار الجوية.. لسوف يجمع الفتيان الأبقار في مكان مغلق مع العجول الصغيرة ويجب على شخص ما أن يعبىء عربات التبن لتؤخذ إلى مكان محكم مع الصباح.. كل حيوان لديه ذرة عقل، سيبحث عن ملجأ له.

أخذ ضمير كوبر يؤنبه الأمر الذي جعله أكثر تململاً، في وقت كانت فيه إيريس تختفي من فوق قمة التل.. لم يكن قد خطر بباله أنها جاءت إلى هنا سيراً على الأقدام. ولو عرف، لعرض إيصالها إلى البلدة، أمامها مسيرة باردة طويلة لتصل إلى «ردهاوس»، وحين تصل، سيكون مقهى بندلي ملاذها الوحيد إلى جانب المقعد الخلفي لسيارة شريف المقاطعة.

تمتم بسباب منخفض مع هبوب ريح قوية راحت تضرب النوافذ الأمامية.. فمع أنها يمكن أن تجد من يوصلها ما إن تصل إلى الطريق العام، إلا أنها ليست مرتدية ثياباً دافئة بما يكفي لتكمل المسير ريثما يمر شخص طيب القلب، وإذا ساء الطقس بالسرعة التي يسوء فيها الآن، فإن هذا الشخص الطيب من الصعب أن يمر. لم يتردد أكثر من لحظة.. يجب أن يخرج في إثرها. شخص ما يجب أن يتأكد من وصولها آمنة إلى البلدة..

ويبدو أنه هذا الشخص سواء أكانت محكومة سابقة أم لا. لكن هذا كل ما يرغب في فعله لها، وما يحدث لها بعد إيصالها، ليس من اختصاصه.

استدار كوبر إلى ما وراء الشرفة المسقوفة ليأخذ قبعته ومعطفه الواقي من المطر، حين رن جرس الهاتف.. دخل المطبخ بينما كانت اليانور تقول بسرعة:

ـ سأقول له.

وعلقت السماعة.

ـ يريد ماتيو أن يعرف ما إذا كان لديك جهاز تحكم حراري لإصلاح المرجل في سقيفة نوم العمال.. لقد وصل لتوه ليجد أن الحرارة كانت متدنية منذ بعد الظهر.

وتنهد وهو يتقدم إلى حجرة المؤن إلى الجانب الشرقي من المطبخ:

ـ هذا وقت لعين وغير مناسب لتوقف المرجل.

قالت اليانور قبل أن تعود لتحضير وجبة الطعام: وسيكون من غير المناسب أكثر إذا لم تجد جهاز التحكم لإصلاحه.

فتش كوبر بين قطع الغيار التي يحتفظ بها إلى أن وجد ما يبحث عنه، وكان يدخل المطبخ لتوه حين ارتجف النور، ثم غاص وعاد مجدداً.

قالت اليانور:

ـ يبدو أننا سنضطر إلى تشغيل المولد الكهربائي.

ـ إذا اضطررت استدعي واحداً من الرجال ليديره ما لم أعد في الوقت المناسب.

وخرج إلى الشرفة المسقوفة، وقطعة غيار المرجل في يده.

وضع ما كان يحمله على مقعد خشبي خارج الشرفة، فقالت اليانور:

ـ أعتقد أن بالإمكان الانتظار حتى عودتك.

ـ لا أستطيع التنبؤ كم سأغيب اليانور.. فما أن أوصل هذه إلى ماتيو، فسأذهب إلى البلدة.

ارتفع حاجبا اليانور:

ـ وهل نظرت إلى الخارج مؤخراً؟

قال بصوت متصلب:

ـ لهذا السبب سأخرج.. تلك الفتاة التي أرسلها أليك جاءت سيراً على الأقدام.. ولقد كانت مستمرة في السير آخر مرة نظرت إليها.

بدت الدهشة على اليانور بوضوح:

ـ أولم تستخدمها؟

ـ لا.

دلّ تصرفه العنيد على أنه لا يهتم. وبينما هو يرتدي السترة الواقية، ويقفل السحّاب إلى ذقنه، لمح نظرة اليانور المستغربة وعرف أنها قادرة على خنقه لتحصل على التفاصيل.. دس قبعته جيداً فوق عينيه، وتمتم بصوت منخفض:

ـ إنسي أمرها اليانور.. لن تكون سوى المتاعب بحد ذاتها.

لمعت عينا مدبرة المنزل:

ـ متاعب للمزرعة.. أم لصاحبها؟

أشاح بنظره عنها ساخطاً وأخذ قطعة الغيار ثم فتح الباب:

ـ لا فارق.

ولحقت به ضحكتها الخافتة إلى العاصفة.

بينما كان يخطو إلى خارج المنزل، صدمت أنفاسه أول هبة ريح.. حاول المقاومة جاهداً ولكنه لم يستطع نسيان منظر إيريس برايبون وهي تسير إلى قمة التل.

ولم يستطع كذلك نسيان الطريقة التي جلست فيها وجعلته يعرف أنها سيدة لها ماض.. لقد لزمها لذلك جرأة وتفان بالصدق.. لكنه لا يريد التفكير بأنها تملك شخصية مميزة.. لديها سجل إجرامي، وبالرغم من أنها لا يمكن أن تكون قد أتمت ما يزيد عن الثلاثة أو الأربعة والعشرين من عمرها، ودون ذكر أنها جذابة جداً، فقد وجد صعوبة في تصديق أن السجن يمكن أن يصلح أحداً..

لا بد أنها قاسية القلب.. لكن بعد ذلك خطرت بباله فكرة لا يرغب فيها، فقد شاهد في عينيها الزرقاوين شرارة خوف وضعف وألم.. لقد بالغ في ردة فعله عند لقائها مع ستيفاني في الردهة، ولو أنها أخفت ألمها بسرعة خلف قناع متباعد فقد لاحظه بوضوح.

اللعنة! لقد ورطه صهره بكل هذا. بماذا كان أليك يفكر على أية حال، حين أرسلها إليه وهي سارقة المواشي المدانة؟ الآن وقد أصبحت ستيفاني في سن يسمح لها بالبقاء في مخزن الغلال مع العمال، آخر شيء قد يرغب به هو محكومة سابقة.

تصارع كوبر مع أفكاره طوال الطريق حتى سقيفة نوم العمال ولدى عودته منها.. ومرّ قرب مخزن الغلال قرب المنزل.. كانت الأرض قد أصبحت منزلقة بشكل خطير، واضطر إلى قطع بقية المسافة إلى سيارة «البيك آب» بكل حذر.. ألا زالت تسير على الأقدام؟ أم أنها في مكان دافىء الآن؟ فتح باب الشاحنة الصغيرة، ومسح الثلج عن زجاجها الأمامي، وزاد الوقت والجهد اللذان أعطاهما لتنظيف الثلج، من إحساسه بالخطورة فهو لن يرتاح له بال إلى أن يلحق بها ويوصلها إلى مقهى بندلي أو يجد أنها وصلت بأمان.

ربما سيقوم بالرحلة دون طائل.. إذا لم تحصل على من يوصلها، فبالتأكيد لديها العقل الراجح لأن تعود أدراجها إلى المزرعة سعياً وراء المأوى وذلك لتحتمي من الثلج.. أليس كذلك؟ توقف عن التفكير لحظة ثم نظر إلى الطريق العام أمامه يفكر بالإمكانيات.. ثم قال بغضب حين لم ير لها أثراً:

ـ اللعنة! لماذا تفعل ذلك؟

لم يعطها سبباً يجعلها تظن أنه سيرحب بها.. مهما كانت الظروف.

مع آخر حركة مسح فيها الثلج، فتح الباب وصعد إلى السيارة.. إذا أسرع، فقد يعود إلى المنزل في الوقت المحدد لوجبة دافئة مع ابنته وينسى أمر

إيريس برايبون.. أغلق الباب بقوة جعلت الثلج المتراكم على الزجاج الجانبي يتساقط، ثم أدار المفتاح، ودون أن يمهل المحرك لحظة لترتفع حرارته، أطلق المركبة في الطريق الداخلية للمزرعة.

***

٢ ـ في قبضة الخوف

لم تستطع إيريس أن تتذكر أبداً مثل هذا البرد الذي أصابها. كانت الريح تهب عليها، دافعة بالمطر المثلج الذي جعلها ترتجف مع كل هبة. لم تكن ترتدي ما يناسب مسيرة ستة أميال في طقس كهذا، ولا حتى بعد أن توقفت لتضيف كنزة صوفية فوق القميص الذي ترتديه تحت سترتها الجينز.

كانت الطريق العامة مغطاة بالجليد بحيث أنها اختارت ممراً أكثر ثباتاً على كتف الطريق المعبدة بالحصى.. كان الظلام يحل بسرعة، وكذلك كان توقعها للوصول إلى البلدة يتلاشى، قلة من الناس قد تجرؤ على المغامرة بالخروج في طقس مليء بالمخاطر كهذا..

منعتها الكبرياء من أن تستدير لتعود سعياً لملاذ في مزرعة برتسوم.. فكوبر برتسوم لم يكن راغباً في إعطائها فرصة. الطريقة التي تصرف بها كوبر حين وجدها مع ابنته، حذرتها أنها ستكون حمقاء لو توقعت منه السماح لها بالانتظار إلى أن تنتهي العاصفة، في أحد مخازن غلاله، ولا في منزله الدافىء.. ربما تكون العدائية التي تحملها لكوبر برتسوم، لها شأن بذلك الإحساس القديم بالإحباط والخيانة الذي حركهما فيها.

كانت قد صدمت لاقتناع من يعرفها ويعرف والدها، في بلدتها، بسهولة أنها قادرة على السرقة منهم لإنقاذ مزرعتها، في حين أن والدها لم يكن حياً ليرى هذا.. لو لم يتوقف قلبه المتعب منذ ثلاث سنوات قبل إدانتها، لكان توقف عند الإدانة.

فاجأتها هبة الريح التالية، وللحظات حذر شديد، قاومت لتستعيد

www.elromancia.com

ثبات خطواتها.. لكنها وقعت بقوة فوق الحصى المبللة المثلجة، تئن وهي تشعر بالحصى المدببة تخز وركها الأيسر.

وقفت بحذر على قدميها.. أصيبت بخيبة الأمل عندما أدركت أن بنطلونها الجينز وقفازها قد ابتلا تماماً بسبب السقوط مما سيسبب انخفاضاً في معدل حرارتها، وبالتالي سوف تتجمد من البرد.. كان العقل السليم يفرض عليها طرح كرامتها جانباً والعودة إلى مزرعة برتسوم، برغم ما يسبب لها ذلك من الألم.

بدأت تعود أدراجها حين لاحت لها أنوار شاحنة صغيرة، تتحرك ببطء نحوها.. وتصاعد أملها.. لكنها أكملت السير بضع خطوات إلى أن اقتربت المركبة.

مدت يدها، وأشارت للسائق.. ثم انتظرت إلى أن انحرفت الشاحنة لتقف إلى جانب الطريق.. تحت الأنوار الأمامية، رأت بوضوح أن الطريق أصبحت بساطاً صلباً من الجليد، وأن كل شيء، حتى الشريط الشائك والعشب النامي في الخنادق الصغيرة على جانبي الطريق، يرتدي ثوباً أبيض سميكاً.

انفتح باب الركاب، فسارت نحوه.. وراحت توازن حقائبها بارتباك.. كانت قد انتزعت الحقيبتين من فوق كتفها لترميهما في الخلف، عندما لاحظت شخصية الرجل الجالس في النور المعتم داخل السيارة.

أصابتها الدهشة بالتردد.. إذ لا بد أن كراهيتها الركوب إلى جانب كوبر كانت بادية على وجهها. ثم لاحظت أطراف فمه تلتوي انزعاجاً:

ـ اصعدي أو تابعي السير.. هذا خيارك.

تصلبت إيريس للهجته الصارمة.. كلماته توحي بعدم الاكتراث.. كانت ترغب بصفق الباب ورفض عرضه للركوب، لكنها كانت تحس ببرد شديد، وفي حال أخطر من أن ترفض.

ودون أن تنبت ببنت شفة، رمت أشياءها في الشاحنة، وصعدت تغلق الباب وراءها.. باغتها الهواء الجاف الحار في الداخل وجعلها تغير الحرارة

الفجائي ترتعش فراحت أسنانها تصطك.

تمتم بغضب:

ـ الأفضل أن تربطي حزام الأمان.. فلن تكون رحلتنا نزهة.

لم ينظر كوبر إليها وهو يقود سيارته ببطء.. ارتاحت لتجاهله إياها، ثم فكت الشال المبلل، وخلعت قفاز العمل من يديها. كانت ثيابها مليئة بالثلج، ولما بدأ الثلج بالذوبان أحست بالبلل يطال عظامها.. مدت يدها تبحث عن الحزام لكنها اضطرت إلى التوقف عن البحث حين لم تطاوعها أصابعها في إقفاله.

كرهت أن تفضح مدى ما تحسه من برد حقاً، ومدت يديها نحو مصدر الهواء الساخن في السيارة، وحركت أصابعها أملاً في تدفئتها بسرعة أكبر.. ثم تمسكت بذراع الباب حين بدأت الشاحنة بالانزلاق.

انزلقت إطارات السيارة الخلفية ما زاد من سرعة السيارة الأمر الذي فاجأ كوبر.. وبما أن استخدام المكابح كان سيزيد الأمور سوءاً، فخياره الوحيد كان مماشاة الانزلاق كي تبقى المركبة الكبيرة على الطريق.

كانت معركته مع الانزلاق خاسرة لأن السيارة خرجت عن السيطرة.. واندفعت نحو خندق عميق واسع إلى جانب الطريق من جهة إيريس التي لم تستطع سوى التمسك بذراع الباب والسيارة تدور وتلف لتقع إلى الخلف ثم إلى الجانب على كتف الطريق.

اندفعت إيريس بعنف إلى جانب كوبر فاصطدم رأسها بالمقود مع توقف «البيك آب» فجأة.

نظر كوبر إلى الوجه الشاحب الذي حرقته الريح، حيث لا ضوء سوى أنوار السيارة الداخلية.. استلقت إيريس متلاشية كلعبة قماش مبتلة على حجره.. وأطلق العنان لسلسلة من السباب حين أدرك أنها فاقدة الوعي.. ثم توقف عن ذلك فجأة بعد أن أحس بالرجفات تهز جسدها.. لا بد إنها نصف متجمدة.

شعر أن من واجبه حمايتها، ثم رفع يده يتلمس خدها البارد بحنان

وأدار وجهها نحوه.. فوجد جرحاً على جبينها تحت مستوى الشعر يقطر دماً، وقد بدأ بالانتفاخ.

ألهاه عنها اهتزاز الشاحنة المفاجىء وهي تنزلق أكثر نحو الخندق. أدرك أنه مع قليل من الحظ قد يتمكن من توجيه البيك آب إلى أسفل الخندق دون أن ينقلب.. ومن هناك سيكون من الممكن قيادته حتى آخر الخندق حيث يرتفع إلى مستوى الطريق، فيخرج به.

ثم، واعتماداً على مدى إصابة إيريس، سيقرر ما إذا كان سيعود بها إلى المنزل إلى أن تصبح الطريق أكثر أمناً، أو أن يخاطر بأخذها إلى الطبيب في البلدة فوراً.

بقدر ما كان راغباً في لومها على هذا كان يعرف أن الغلطة غلطته.. لو أنه وضع السلاسل الحديدية في الإطارات أصلاً، أو توقف ليضعها، لما كانا قابعين في الخندق وسط عاصفة جليدية.

نظر مجدداً إلى وجه إيريس الساكن بقلق. لو أنه لاحظ أنها لم تربط حزام الأمان، لكان فعل هذا بنفسه، وما كانت الآن مستلقية على حجره.

قال بصوت أجش هامس:

ـ وما كنت سأشعر بالمسؤولية تجاه كل ذلك.. كنت أظن أن سارقي المواشي، والمحكومين السابقين قساة.

داعب إصبعه بخفة خدها البارد.

ـ كان بالإمكان أن يكون الأمر أسهل علينا معاً لو كنت قاسية.

رأى أن إيريس لم تكن مصابة بأذى غير الضربة على رأسها.. فدس يديه برقة تحتها ورفعها إلى أن أصبحت مستندة إلى جانبه الأيمن.. أطبق فمه بعنف، وأعاد تشغيل محرك الشاحنة، ثم حركها إلى الأسفل داخل الخندق.

استعادت إيريس وعيها.. مصدومة، ضائعة، تحركت محاولة الجلوس مستقيمة، بعد أن أدركت أنها تستند بكل ثقلها على كوبر.

ـ هل أنت بخير؟

هزت إيريس رأسها طلباً لصفائه، لكنها أجفلت أمام قوة الألم التي وخزت صدغها إثر الحركة. حاولت الابتعاد عن كوبر، لكن إيقاف التلامس مع جانبه الدافىء الصلب، سمح للبرد مجدداً بالعودة إلى أوصالها.

ـ إيريس؟

دفعها الاهتمام القلق في صوت كوبر لأن تنظر إليه مباشرة.. بدت ملامح وجهه لها أقل إرهاباً هذه المرة، وعيناه السوداوان منصبتان عليها.

أحست بالتوتر إذ لاحظت مدى تغيره، فأشاحت بوجهها بعيداً لتميل أكثر إلى جانب المقعد العريض.

مدت يدها بخوف تلامس التورم فوق صدغها:

ـ أنا بخير.. إنه مجرد صدمة صغيرة.

لامست ذراعه ذراعها وهو يمدها إلى الخلف، فأخرج بطانية وأعطاها لها.

ـ لفي نفسك بتلك، بينما أحاول وضع السلاسل على الإطارات.

حين بدت بطيئة التجاوب، فتح البطانية ولفها بها.. فأصدرت صوت احتجاج صغير حين لف البطانية على حجرها ودس أطرافه حول ساقيها.. فلفت الصوت اهتمامه للحظة، فتوقف.

ألأنها تشعر ببرد قارس، أحست بيديه تحرقانها عبر البطانية حتى البنطلون الجينز المبلل إلى بشرتها الباردة؟ التقت عيونهما في النور المعتم للسيارة من الداخل وهو يميل فوقها لينهى عمله.. استطاعت الإحساس بدفئه، وأنفاسه العطرة على خدها ورائحة عطر ما بعد الحلاقة. خنقتها قوة رجولته عن قرب.. لكن بدلاً من الحذر من الموقف الذي بدا غريباً... أحست أنها آمنة بطريقة لم تعرفها منذ سنوات، وفي الوقت عينه مهددة بشيء لا تستطيع وصفه بالكلام.

فجأة، ابتعد كوبر. فأغمضت عينيها متعبة، وأصغت إليه وهو يفتح باب السيارة، ليبحث تحت المقعد. سمعت قعقعة السلاسل الثقيلة وهو

يجرها إلى الخارج ثم يقفل الباب.

استغرق وضع السلاسل مكانها طويلاً. لكنه عاد أخيراً إلى الداخل..

فتحت إيريس عينيها دهشة حين مد يده ليربط لها حزام الأمان..

كانت المسيرة على طول أسفل الخندق بطيئة ووعرة، وكان رأسها يرتج مع كل هزة.. أخيراً أصبح الخندق أقل عمقاً إلى أن كاد يتساوى بالطريق.. فجأة انحرفت السيارة إلى جانب الخندق.

وبعد بضع محاولات عادت الشاحنة إلى الطريق العام، وصار نصفها على الجانب المرصوف بالحصى ونصفها على كتف الطريق، فأوقف كوبر الشاحنة ونظر إلى إيريس:

ـ كيف حال رأسك؟

أدركت أنه يتوجه بالشاحنة غرباً ليوصلها إلى البلدة فملأت الخيبة قلبها.. وأجابت:

ـ لا شيء لا يمكن لقرصين من الأسبرين أن يشفياه.

ـ هل تشعرين بدوار أو غثيان؟

ـ لا.. بالبرد فقط. سأكون بخير متى وصلنا البلدة.

قال بصوت أجش أعطى كلماته الساخرة لذعة قارصة:

ـ عزيزتي.. في حال لم تلاحظي.. فالطقس عاصف جداً.. وإذا كنت تظنين أنني سأخاطر مرة أخرى لأجلك هذه الليلة، ففكري جيداً.

طارت عيناها لتلتقيا بالقسوة المتجددة في عينيه.. وتحولت دهشتها إلى الغضب، مما زاد عمق لون وجهها، وحرك فيها كل مشاعر حماية الذات.. للحظات ظنت كوبر قلقاً عليها فعلاً.. لا بد أن رأسها مصاب بقسوة أكثر مما تظن.

قالت:

ـ لم أطلب منك المخاطرة لأجلي أصلاً. ولا أتوقع منك المخاطرة الآن لكنني أعرف أنك تفضل أن لا تطأ قدماي أرض مزرعتك.

حدقت طويلاً في عينيه حتى ظنت أن تلك اللحظة لن تنتهي أبداً وكانت

نظراتهما تشيران إلى تحذير لم تترجمه شفاههما، عندئذ أصبح التوتر لا يطاق داخل الشاحنة، قبل أن يحرك كوبر السيارة لينطلق بها مجدداً.

لم تدرك إيريس أنها كانت تكتم أنفاسها إلى أن أدار المقود نحو اليسار، وحوّل الشاحنة باتجاه المنزل.. خفف الإرهاق من توتر أعصابها، وتلاشى غضبها وهي تنظر إلى الأمام عبر الزجاج الأمامي.. ارتاحت لأنها ذاهبة إلى مكان تبيت فيه ليلتها برغم كون العرض اضطرارياً.

خاطرت بنظرة حذرة إلى كوبر.. وأوحى لها منظر فكه، أن لا شيء سوى العاصفة العاتية كان سيقنعه بالسعي خلفه. كانت مبتلة جداً، وتحس ببرد شديد، ولن تمانع في خشونته معها.. فهي غير معتادة على اللطف على أية حال، وبما أنها تعلمت درسها، فهي أبعد ما تكون عن الضعف العاطفي.. وعلى المدى الطويل، سيسدي لها خدمة كبيرة لو بقي عدوانياً.

اندست إيريس عميقاً في البطانية مع إخراج كوبر للشاحنة عن الطريق العام. وفجأة بعد برهة أصبح صوت السلاسل الحديدية على الأرض خافتاً وذلك مع دوران الإطارات فوق الطريق الداخلية للمزرعة. فأغمضت إيريس جفنيها بارتياح مع بروز أنوار المنزل الكبير.

شعرت بأن قلبها يخفق بعد أن أعاد لها ضوء المنزل عبر النوافذ الإحساس بالعودة إلى البيت بعد يوم متعب، أصابتها غصة جراء الحنين إلى منزلها، المزرعة التي نشأت فيها ذهبت الآن.. فحتى موت والدها، كانت الأيام الصعبة قد دفعت بالمزرعة إلى الخط الأحمر، وكان عليها أن تناضل ليلاً نهاراً لتتمسك بها.. فيما بعد، أجبرتها الرسوم القانونية للدفاع عنها والتعويضات الكبيرة التي فرضها عليها القاضي على بيعها.

أربعة أجيال من أسرة برايبون ربوا الماشية في تلك الأرض من شمالي وايوفنغ، لكنها كانت الوحيدة من هذه الأسرة التي فقدتها.. لم تكن معرفتها أن أفول نجم المزرعة قد بدأ قبل أن تتولى أمرها لتخفف من شعورها بالذنب، إلى أن أنهت تصرفات أخيها غير الشقيق المريبة كل شيء.

صمت المحرك الكبير فجأة مع إطفاء كوبر له، فأعادها إلى حاضرها..

ونظرت إليه، لتشعر أنه على وشك قول شيء كريه. ففكرت فوراً بابنته الصغيرة وكيف أن غريزة أبوته لحمايتها تتحرك فيه الآن.

قالت:

ـ بإمكانك أن تسترخي سيد برتسوم. لقد أذنبت بسرقة الماشية، وليس بسرقة الأطفال. إذا كان بإمكان طباختك أن تجد لي شيئاً آكله، ومكاناً جافاً في مخازن الغلال الدافئة.. سيكون هذا رائعاً.

التفت إليها بحدة، والقسوة بادية في عينيه كفولاذ برّاق تنم عنه تعابير وجهه العاصفة فارتفع أحد أطراف فمها سخرية:

ـ ثم أنا لست لصاً محترفاً لأنجح في سرقة الكثير من المواشي في مثل هذا الطقس.

جعلتها الشتيمة اللاذعة التي ضربت أذنيها تجفل. فجأة مد يده إليها.. ذعرت لحركته، فابتعدت بحذر. وشهقت حين أمسك معصمها في قبضته الكبيرة.. ودارت معركة بينهما وهي تحاول التحرر منه.. ومد يده الأخرى إليها.. فجأة انفلت قفل حزام الأمان في مقعدها، فأجفلها التفاته وارتداده.

قال بصوت كاد يثقب طبلتي أذنيها:

ـ ماذا ظننت بحق السماء أنني سأفعل؟ أضربك؟

وشدها من معصمها لتصبح قريبة منه.

كان الرد عليه في أعماق عينيها الفزعتين وشحوب قسماتها المتوترة وهي تضع يدها الأخرى على صدره، وأحس كوبر أنه لو تركها الآن فستهرب.. وهذا ما أزعجه.

ـ اللعنة إيريس.. أنا رجل أثتم كثيراً وكثيراً ما أتفوه بالسباب.. لكنني لم أضرب امرأة في حياتي.

صمت بعد أن أدرك أنه يصيح في وجهها.. مر على وجهه شيء ما، يخبرها أن هذه المعلومات الصغيرة التي تطوع بقولها عن نفسه لم تكن مقصودة، ولا عفوية.

في تلك اللحظة أحست إيريس أن هناك خطأً قد تجاوزه.. خط زادته الطريقة التي كانا يتلامسان بها بروزاً.. كان لعناقهما الإجباري علاقة غريبة بشيء متوتر فيهما معاً.. عينان زرقاوان نظرتا إلى عينين سوداوين مع وجود تيار غريب كان يسري بينهما.

تراجع كوبر أولاً.. فيما تحول إلى القسوة مجدداً.. وأخفت عيناه كل شيء عنها ما عدا الغضب:

ـ خذي البطانية معك، وادخلي المنزل.. سأحضر حقائبك.

أحست إيريس بارتياح وانتزعت البطانية ورمته بها:

ـ سأحضرها بنفسي.

فتشت عن قفازيها وشالها المبتلين، ولم تضيع الوقت في فتح الباب.. خرجت توازن خطواتها بحذر، ومدت يدها إلى الخلف لترفع حقائبها. التوى رأسها وهي تميل بنفسها إلى الأمام محاولة الوصول إلى الحقائب..

كانت على وشك سحب الحقيبة نحوها حين مد كوبر يده من مقعده وانتزع الحقيبة من بين أصابعها. ثم، وبالسرعة ذاتها، أمسك مقابض الحقيبتين الأخريين ورفعهما ثم بدأ السير نحو المنزل، كل ذلك قبل أن تتفوه بأي احتجاج..

أجبرتها خطواتها على الأرض المليئة بالثلج على التوكؤ على حافة الشاحنة الصغيرة حتى وصلت إلى الشرفة المسقوفة. حينها فتح الباب وانحنى كوبر يمسك مرفقها.. وما أن أصبحت في الداخل آمنة حتى سحبت نفسها منه، مرتاحة لخلاصها مما تسببت به لمساته من إثارة عاطفية.

قال لها:

ـ من الأفضل أن تخلعي «الحذاء» من قدميك.. وجدي لنفسك حمالة ثياب تعلقين ثيابك عليها.. بإمكانك تجفيفها لاحقاً.

كان قد خلع «حذاءه» وسترته الواقية. فاستدار ليدخل من الباب الداخلي للمطبخ.. خلعت إيريس حذاءها بسرعة ووجدت ما يكفي من حمالات الثياب الفارغة على جدار الشرفة المسقوفة لتعلق معطفها، قبعتها

وشالها، ثم وضعت قفازها فوق الحذاء الذي وضعته على حافة بساط صغير أمام الباب.

دخلت المطبخ بسرعة ظامئة إلى الدفء في الداخل، وأقفلت الباب وراءها... أثارت الحرارة في الغرفة الكبيرة المزيد من قشعريرة البرد، واصطكت أسنانها حتى آلمها فكها.

كان كوبر جاثياً قرب حقائبها، يستخدم البطانية التي حملها معه من السيارة لمسح المطر عنها.

صاحت اليانور وهي تدخل المطبخ:

ـ يا إلهي يا فتاة! لا بد أنك نصف متجمدة؟ من الأفضل لك التخلص من هذه الثياب بسرعة، ثم الدخول إلى مغطس ساخن.

قاطعها صوت كوبر:

ـ سأهتم بذلك.. اهتمي أنت بدخول ستيفاني إلى فراشها.

جمدت اليانور للهجته القاسية لكنها لم تقل شيئاً وهي تستدير لتغادر المطبخ.

نظر كوبر إلى إيريس، تاركاً عينيه السوداوين تجوبان فوقها قبل أن يتقدم إلى غلاية القهوة الموضوعة فوق رف المغسلة.. جاء بكوبين كبيرين وملأهما قهوة حتى الحافة تقريباً.. ثم مد لها يده بأحدهما.

خطت إيريس إلى الأمام لتأخذ الكوب.. لسوء الحظ لم تستطع السيطرة على رجفة جعلت يدها تهتز. وقبل أن يترك الكوب تماماً، كانت قد سكبت عن غير قصد بعض القهوة على أصابعه.

اعتذرت بسرعة: أنا آسفة.

ورفعت نظرها إليه تتلقى رداً خشناً:

ـ ما من ضرر في ذلك.

ثم تخطاها حاملاً قهوته ليجمع حقائبها ويخرج إلى الردهة، وتركها تلحق به.

أمسكت الكوب بكلتا يديها بحذر، وسارت خلفه بعد أن ترددت لحظة

احتست خلالها قليلاً من القهوة.. تلذذت بطعمها القوي، وانسابت الحرارة إلى داخلها لتدفىء جوفها. أمسكت الكوب بثبات أكثر، وتابعت السير. كانت قد قطعت أكثر من نصف المسافة بقليل في الردهة المعتمة، حين أطبق عليها إحساس بالاحتجاز.

تعاظم التوتر في صدرها وراح يمتد في كل اتجاه ليرسل نوعاً آخر من القشعريرة فيها. حاولت يائسة أن تقاوم هذا الإحساس، وأن تركز على أي شيء يجعلها ترتاح من الشعور الفظيع.

كان كوبر يتابع السير أمامها، في الردهة، التي بدت لها ضيقة بشكل غير طبيعي.. يكاد جسمه عريض الكتفين يصطدم بالجدارين.. ولو أنه يحمل كوب القهوة في يد وحقائبها في الأخرى، في رشاقة ممتزجة بقلة اهتمام زاد إحساسها بالذعر.. ما الذي يحصل لها؟

اختفى كوبر من الممر، وناداها عبر أحد الأبواب:

ـ هل أنت قادمة؟

أحست بخجل من جبنها غير المنطقي، وأسرعت وراءه، لترتاح لحظة وصولها إلى الغرفة التي كان ينتظرها فيها.

حين خطت إلى غرفة الضيوف المضاءة جيداً، أخذ ذعرها يخف بشكل عجائبي.. سبب لها الانزعاج المطبوع بوضوح على قسمات كوبر المتصلبة شيئاً من الغضب، وبشكل غريب، أخفى الإحساس بالذعر أكثر فأكثر.

ـ بإمكانك النوم هنا الليلة.. إن غرفتي خلف الردهة. من الأفضل أن تأخذي حماماً ساخناً.. ستتناول الطعام في غرفة الجلوس فيما بعد.

هكذا، تخطاها وأقفل الباب وهو يخرج.

لكن حين أقفل الباب تحرك بداخلها إحساس قاتم مخيف. استدارت نحو الباب، دون تردد، تمسك مقبضه لتفتحه.. ثم تمكنت من استعادة سيطرتها على نفسها، وفتحته بضع إنشات.. طغى عليها الارتياح، فأسندت رأسها إلى الخشب الناعم المصقول تنتظر فتور خفقات قلبها.

هدأ ذعرها أخيراً، لكنه ترك مكانه إحساساً بالارتباك والخوف.

استلقت إيريس على ظهرها في ماء المغطس الساخن دون أن تدرك تماماً ما الذي أصابها.. لم يكن يخيفها أي شيء إلا نادراً.. مع ذلك نظرت نحو باب الحمام المفتوح والملحق بغرفة الضيوف، فأزعجها منظر الأبواب المغلقة، والأماكن الضيقة لما لها من القدرة على بث الذعر فيها.

ربما لم يكن ذلك غريباً إلى هذا الحد.. بعد أن أمضت سنتين محجوزة في السجن في مكان ضيق محدود... بالنسبة لشخص نشأ كما نشأت حرة في الخلاء الواسع منذ تعلمت السير، كانت قساوة السجن أكثر من أن تتحملها.. وحده الأمل في إطلاق سراح مبكر، وتصميمها على تنظيف اسمها، جعلها تتحمل.

لم تكن تحلم أن يكون أول يوم لإطلاق سراحها مخيباً للآمال هكذا.. كانت ردة فعل كوبر برتسوم على سجلها الإجرامي، برهاناً ظالماً على أن إمكانية عيشها حياة طبيعية، أمر يكاد يكون مستحيلاً.

جعلتها الفكرة تشعر بالإحباط. غسلت شعرها، خرجت من المغطس، ثم جففت البلل عن شعرها بحدة، مجنبة إياه ملامسة التورم في رأسها بحذر. حين انتهت، ارتدت بنطلون جينز نظيف وكنزة كحلية سميكة طلباً للمزيد من الدفء.. ثم أخذت مشطاً عريض الأسنان، وسمحت لنفسها بأن تنظر حولها في غرفة الضيوف وهي تمشط شعرها.

كانت الغرفة تبدو منزلية.. الغطاء المشغول باليد على السرير، المفارش الصغيرة على طاولة الزينة، والستائر البيضاء على النوافذ المزدوجة، أعطت الغرفة مظهر الريف المريح... كل ذلك أعطاها الإحساس بالارتياح.

توقفت عن تمشيط شعرها، لتنظر إلى الباب المؤدي إلى الردهة لتجد أنها تركته مفتوحاً، ففوجئت واكتشفت سخف خوفها السابق..

ليس في الغرفة شيء يذكرها بالسجن، مدت يدها لتريحها على خشب الباب الناعم.. لا بد أن ما أحست به قبل قليل، كان ردة فعل بسيطة للأحداث المتعبة التي مرت بها اليوم.. فعلى أية حال، لم يطلق سراحها إلا

منذ بضع ساعات مضت.. ربما سيتأخر الوقت لتشعر بالارتياح مع هذا التغيير.. وقررت أن لا تعطي الخوف مكاناً في حياتها. ثم أقفلت الباب بحركة ثابتة.

***

www.elromancia.com

٣ ـ عاصفة الرغبة

خرج كوبر من غرفة النوم إلى الردهة الطويلة من بيت المزرعة الواسع باتجاه غرفة الجلوس. سمع ضيفته غير المرغوب بها تترك غرفتها منذ لحظات، وعرف أن الوقت قد حان ليخرج بدوره من غرفته. كان قد دخل إلى غرفة ستيفاني ليقبلها قبلة المساء ويتمنى لها ليلة سعيدة، منهياً بذلك احتجاجاتها على النوم باكراً.. وأسئلتها حول إيريس، مع وعد بأخذها لزيارة جراء الكلبة الاسكتلندية في سقيفة نوم العمال، في اليوم التالي.. كان يأمل أن يكون الأمر مناسباً بعد إخراج إيريس برايتون من المنزل وإيصالها إلى (ردهاوس).

أقلقه وجودها، لقد أحس بانجذاب نحو نساء جميلات المظهر من قبل. وهو لم يعد ذلك الولد الأرعن، فهو أرمل منذ ست سنوات؛ وهذا وقت طويل بما يكفي ليتجاوز حزنه إثر فقدانه زوجته في حادثة سيارة، واستكشف بعض إمكانياته الرومانسية مع رفيقات له بما يكفي، ويمكنه تجاوز إعجابه بإيريس بسهولة تامة كما الأخريات.. لذا فقد خمّن أن سجلها الإجرامي هو الذي يجعله متوتراً.. لا يرغب أن تكون ستيفاني على معرفة بنساء مثلها، لكن بعد انتهاء العاصفة ورحيل إيريس سيكون من الصعب حمايتها من هذا الأمر.

أرجفته الصدمة عندما وصل إلى نهاية الردهة التي انفتحت إلى غرفة جلوس.. كانت إيريس تقف أمام المدفئة.. دون أن تعي وجوده، كانت تمرر أصابعها في شعرها المبلل، تنفش خصلاته الطبيعية الطويلة وهي تميل

قريباً من حرارة النار المجففة.. قبل ذلك، كان شعرها يبدو بنياً قاتماً، لكن أمام نور النار، تخلله مزيج فاتن من اللون الأحمر الذهبي الذي ذكره بآخر ألوان غروب الشمس.

استدارت نحوه وعيناها مغمضتان بسبب الحرارة، تمرر أصابعها بلطف خلال الضفائر التي تصل إلى خصرها النحيل. وبرغم الجدية المرتسمة على وجهها الذي لوّحته الريح والذي تظهر عليه الحرارة، فقد كان التراقص اللطيف للخصل يعطيها نظرة برّية مثيرة، جعلت كوبر يصر بأسنانه.

أجبر نفسه على التحرك، وكأنه دخل لتوه.. ثم تكلم وهو يحرص على أن تكون نبرة صوته قوية.

ـ لا بد أن هناك مجفف شعر في مكان ما من غرفتك.

انفتحت عينا إيريس، والتقطت نظرته قبل أن تشيح بنظرها بعيداً:

ـ لم أبحث عنه.. وهذا جيد كذلك.

وابتعدت عن النار تمرر المشط في شعرها عدة مرات لتخفف من تطايره، ثم دست المشط في جيبها.

ـ جدي لنفسك مكاناً نجلسين فيه.. سأقول لألينور إننا على استعداد لتناول الطعام.

جلست في مقعدها متعبة.. حسن جداً.. أكان يرحب بها أم لا، ستحصل على وجبة ساخنة ومكان تنام فيه بانتظار انتهاء العاصفة.

لو أنها وصلت إلى المزرعة قبل ساعتين، لتمكنت من العودة إلى «ردهاوس» قبيل العاصفة.. نظرت إلى النار متوترة الغرائز يلفها إحساس مألوف من الغضب وإدانة النفس، فراحت تتذكر...

كانت عمياء أمام العمليات القذرة التي كان بلاك ـ أخوها غير الشقيق ـ يقوم بها، ولو أنها كانت تتساءل كيف يحصل على المال الكثير ثم يبدده في كل مكان.. في وقت كان يحكمها قلق دائم حول دفع الضرائب المتراكمة عليها، واضطرارها إلى بيع جزء من قطيع الماشية الذي تملكه.. كانت تعمل ليلاً نهاراً في محاولة منها لإنقاذ المزرعة ناهيك عن العمال،

ورغم ذلك اضطرت إلى صرفهم. لم تفعل شيئاً إزاء بلاك سوى التعليق من وقت إلى آخر على تصرفه، أو تبديده الأموال في وقت يستطيع فيه أن يعمل.

والدها لم يتفق يوماً مع ابن زوجه، أما جهوده لجعل بلاك رجلاً فلم تثمر أكثر من خلق شرخ بينهما.

ولم تجد إيريس الأمور سهلة. فوالدها توقع منها الكثير كما لو أنها صبي، وغرس فيها استقامته ورأيه في العمل الشاق، وراح يحضرها لليوم الذي ستتولى فيه إدارة أمور المزرعة.. ظنّ ستيفن أن امرأة ذات قدرة حديدية يمكنها أن تدير عشر مزارع مثل مزرعة برايبون، كما لو أنها رجل، طالما هي ابنته..

لو لم تشعر إيريس ببعض الذنب للطريقة القاسية التي عامل فيها والدها أخاها غير الشقيق، لكان كسله قد جعل منه أحد أبرز المساعدين الذين تعتمد عليهم حين اضطرت إلى تخفيض عدد قطعان المزرعة، ولكانت تركته يعيش هناك.

كان قد تذمر عبر ملاحظاته بأنه «القريب الفقير» لكنها لم تكن تدرك أن مرارته عميقة، بحيث ينظم سرقة للمواشي في المنطقة وبعد أن أصبحت أعماله مكشوفة بما يكفي لإثارة شكوكها، تبعته ذات ليلة وواجهت الحقيقة القاسية.

ضبطته وهو يسرق عشرة رؤوس من أفضل مواشي الجيران.. ولم يكن هناك وقت لمواجهته قبل سماع صفارة الإنذار ووصول دورية الشرطة على ضوء القمر.

قال بلاك لها:

ـ يبدو أن الشريف صدّق الوشاية.. لكنني مندهش لمعرفته الاتجاه الصحيح دون أن يخطىء عدة أميال.

ضحك الرجلان اللذان معه ثم ركضا إلى البيك آب المتوقف إلى الجانب الآخر من قطيع الماشية.. واستدار بلاك ليلحق بهما.

سألت:

ـ ما الذي يجري بلاك؟

رد وهو يضحك:

ـ لقد سألتني هذا السؤال من قبل.

نظرت إلى سيارتي الدورية المتقدمتين بسرعة نحوهما، وركضت خلفه تمسك بذراعه في محاولة لإيقافه، فوقفت أمامه تسد طريقه:

ـ كنت خلف هذه السرقات منذ أشهر، أليس كذلك؟ كنت تسرق أصدقاءنا وجيراننا..

ـ جيرانك أنت، أصدقاءك أنت. وذلك الغبي العجوز الذي يظن نفسه ملك تجارة المواشي.

كانت الضحكة البشعة التي أطلقها ساخرة:

ـ يا إلهي.. كم أكره ذلك العجوز والدك.. لم أكن لأستطيع إدارة مثل هذه العملية تحت أنفه وجعله يُشنق لأجلها.. لذا فعلت ما هو أفضل لي.. لقد نفذتها تحت أنف ابنته إلى أن غرقت عميقاً إلى ما فوق رأسها.

مرة أخرى ضحك بلاك.. وانقلب غثيان إيريس إلى خوف حتى الموت.

ـ ماذا تعني؟

رده أخافها، وجف فمها خوفاً من كلامه الصارم:

ـ سيأخذ الشرح الكثير من الوقت، أكثر مما لدي الآن. الشريف العجوز سيظن أنه نجح، وسيطير فرحاً بعد إنهائه كل هذه السرقات وإثباتها على ابنة ستيفن برايبون.

دفعها بلاك بخشونة عنه، فصُدمت وترنحت ولم تستطع القيام بشيء سوى التحديق إلى بلاك وهو يركض إلى البيك آب، ويقفز وراء المقود.

توقفت سيارات الشرطة الثلاثة، بينما كانت صفاراتها تصيح بصوت يصم الآذان، أمام شاحنة الماشية المحملة بعد لحظات من اختفاء بلاك وصديقيه.. أضاءت الأنوار الأمامية للسيارات المنطقة واستدارت إيريس نحوهم وهم يفتحون الأبواب، فتقدم نواب الشريف نحوها.

هكذا بدأ كابوس اعتقالها وعدم لحاق الشرطة ببلاك ورفيقيه، واستجواب الشريف لها الذي انقلب إلى دليل أدان إيريس، ثم المحاكمة والدفاع غير الناجح.

ـ أرجو أن تعجبك الستيك المتوسطة النضج.

أخرجها صوت كوبر من أفكارها المتجهمة، فقد دخل الغرفة ليتقدم منها حاملاً صينيتها.

مدت إيريس يدها لتأخذها بعد أن رسمت على وجهها ابتسامة شكر، ووضعتها على حجرها بينما عاد إلى المطبخ ليأتي بالصينية الأخرى. تمتعت برائحة اللحم الطازج خفيف النضوج للحظات.. كانت البطاطس المشوية التي يتصاعد منها البخار، إلى جانب قصعة كبيرة من اللبن الرائب موضوعة قرب الطبق المليء باللحم تقريباً.. ورغيف خبز مصنوع يدوياً على طبق منفصل قرب كوب من الزبدة المخفوقة..

تسبب الحنين إلى موطنها بغصة في حلقها.. مدت يدها إلى منديل الطعام، وعاد كوبر ليضم إليها مع وجبته، فبدأت تقطع الستيك لتتذوقه.

كان الصوت الوحيد في الغرفة طقطقة النار وقعقعة الأدوات الفضية على الخزف.. تمكنت إيريس من أكل كل شيء، فهي جائعة بما يكفي لأن لا تهتم بأفكار كوبر عنها.. رأيه بها محفور في الحجر.. ولا شيء سيغيره، جيداً كان أم سيئاً.

بينما كانت تضع الصينية من يدها وتتكيء إلى الخلف لتشرب قهوتها، ارتفعت عيناها لتلتقي عيني كوبر كان هو كذلك قد أنهى وجبته، ووضع كوب القهوة على ذراع المقعد وراح يسترخي.. قوت إيريس نفسها بمواجهة نظرته المنصبة نحوها باهتمام، وقالت بهدوء:

ـ السيدة ڤيرنيش طباخة ممتازة، شكراً للوجبة.

وشربت القهوة بارتباك.

ـ يبدو أنك هضمتها بسهولة.

ـ لم تكن مهمة صعبة.

تطاول الصمت، ونظرت إيريس إلى النار. ارتاحت أكثر في مراقبة ألسنتها تتراقص.. ثم سألت مجدداً:

ـ كم ستطول العاصفة بالنسبة لي لأتمكن من الرحيل؟

شعرت بتوتر في حركات كوبر جعلها تنظر إليه.

وقال مدمدماً:

ـ ليس بسرعة تكفي.. قبل أن نجلس جاء في تقرير الطقس أن الثلج سيواصل الهطول طوال ليلة الغد، وربما أكثر. أما ارتفاعه فسوف يبلغ ثمانية إلى اثنتي عشرة إنشاً.

هزت رأسها باكتئاب، فهي تعرف شعوره حيال وجودها لبضعة أيام على ما يبدو.. وما خمنت أنه سيزعجه أكثر، قربها من ابنته.

ـ ما من داع لبقائي هنا في المنزل فأزعجك، ربما أستطيع العمل خارج المنزل.

ـ كيف حال الصدمة على رأسك؟

هزت كتفيها:

ـ مؤلمة قليلاً، لكنها ليست مؤلمة كثيراً، والفضل لبعض الأسبرين. وربما لن ألاحظ وجودها بعد نوم ليل مريح.

كان الصمت الطويل الذي تبع حديثهما القصير يذكرها بقوة أن كوبر يعتبرها دخيلة إلى منزله.. حاولت إيريس عدم الاستسلام لليأس. لطالما اعتبرت أن مستقبلها في مزرعة برايبون، آمن ومستقر.. مع ذلك فقد ذهب هذا منذ زمن طويل، ولن تشعر مرة أخرى بمثل هذا الإحساس الغابر بأنها هائمة في العالم على غير هدى.. لا تنتمي إلى أي مكان، وليس لها مكان تذهب إليه.. حدقت في قهوتها محاولة أن تكبت خوفها دون جدوى.

سألها:

ـ أيزعجك شيء؟

جعلها صوته العميق ترفع رأسها.. وأسرت نظرته نظرتها.. إضافة إلى اللطف في صوته، كانت نظرته تقول إنه أحس بشيء من مشاعرها..

أجفلت بحذر لفضح مشاعرها. كوبر برتسوم لن يهتم أبداً لمشاعرها، ولن يعرض عليها السلوان.. ولسوف يفسر أي نوع من الاعتراف من جهتها على أنه مؤامرة لكسب إشفاقه وعطفه، الأمر الذي لا تتحمله أبداً:

ـ لقد كان يومي طويلاً متعباً.. أظن أنني بحاجة إلى النوم الآن.

التقطت صينية الطعام لتحملها إلى المطبخ، فحذا كوبر حذوها وسار أمامها إلى المطبخ.

ـ ضعيها على رف المغسلة.. قالت اليانور إنها ستهتم بتنظيفها في الصباح.

وضعت إيريس الصينية حيث قال، ثم استدارت لتذهب إلى غرفتها.. ولم تبدُ الردهة الطويلة مزعجة الآن.. فكون أن كوبر يلحق بها، أبعدها عن الإحساس بأي شيء آخر.

قال:

ـ إذا كنت تشعرين بنشاط في الصباح، سآخذك لتعملي كما وعدت.

توقفت عند عتبة الباب، واستدارت باتجاهه:

ـ سأكون جاهزة.

بدا وكأنه سيقول شيئاً آخر.. لكنه سارع إلى تمني ليلة سعيدة لها بصوت خشن، ودخل غرفته. لاحظت أنه لم يغلق الباب تماماً، ربما ليتمكن من سماعها في حال حاولت التجوال في المنزل لتسرقه.

أسرعت إلى الاستلقاء على فراشها منجذبة إلى الدفء والراحة. استلقت في الظلام لبعض الوقت تتمتع بحجم السرير الكبير، والمفارش ذات رائحة الليلاك. أصغت إلى عويل الريح الخافت وإلى صوت الثلج يضرب الزجاج بين الحين والآخر. جعلتها الأصوات المنزلية اللطيفة تشعر بالأمان، لكن، برغم هذا الإحساس الغريب بالدفء والأمان، نظرت إلى بابها المغلق لآخر مرة قبل أن تغفو.

استندت إيريس متعبة إلى عامود خشبي في سقيفة العجول الصغيرة، فراحت تشرب قهوتها وهي تراقب العمال وهم ينقلون التبن على بعد أربعة

أقدام منها. إنها هنا منذ الساعة السابعة صباحاً، أي ما يقرب من الساعات العشرة. وهذه هي المرة الأولى التي تتمكن فيها من الاستمتاع بالقهوة أو بشيء من الطعام.

لم تشعر بمثل هذه الراحة بعد التعب منذ زمن بعيد. أخذت تراقب الوالدات لأول مرة وتساعد في وضعهن قرب أولادهن. عادة كان هذا عملاً يثير اليأس وقد فعلت هذا أكثر من مرة ولكنها كانت تتمتع به كما تمتعت به اليوم.

ضحكت إيريس بصوت ناعم خافت، حذرة كي لا تخيف البقرات الصغيرة.. لن تمانع في تنظيف كل حظيرة في مزرعة برتسوم ثلاث مرات في اليوم طالما هي تهتم بأعمال المزرعة.

ـ وهل تقص عليك هذه العجلة الصغيرة النكات؟

توقف جارد روستانغ، أحد عمال المزرعة الذي عملت معه ذلك اليوم، في طريقه أمام الحظيرة ذات السقف المفتوح.. بدا وجهه كثير التجاعيد، وعلى وجهه ضحكة تكاد تكون بيضاء مثل شعره الأبيض.

ردت إيريس بسهولة:

ـ لقد توقفت عن رواية النكات منذ نصف ساعة.

ـ يبدو أنها على ما يرام.. ليست سيئة جداً بصفتها أماً لأول مرة.

هزت إيريس رأسها:

ـ أعتقد أنه كان لنا نصيب وافر من الولادات الصعبة في السقيفة الأخرى هذا الصباح.

كان هناك ثلاث ولادات متعسرة كادت تفقد المزرعة الأم والعجل معاً.

قال جارد يومىء برأسه إلى نهاية المكان:

ـ لدي واحدة وضعت هناك منذ خمس دقائق. ولم تكن تبدو مستعدة للوضع تماماً.. وأظنها الآن ترتاح بانتظار الثور ليأتي ويمسك بيدها مواسياً.

ضحكت إيريس دون أن تبدو عليها الدهشة، فالكثير من عمال المزارع

يفضلون أي عمل زراعي متعب على لعب دور «القابلة» . . وسألت :

ـ كيف حال الطقس؟

ـ لا يزال الثلج يتساقط بقسوة وسرعة، وإذا استمر هكذا، فستعلقين هنا مدة أسبوع . . من الأفضل التحدث إلى الرئيس حول توظيفك هنا . . بإمكانه دائماً استخدام عامل جيد .

ضحك . . فتبسمت إيريس قصراً، فقد ألمح جارد إلى هذا في وقت مبكر، وتظاهرت أنها لم تسمع، ولأن هذا لن ينجح معها لمرة أخرى، نظرت إليه بارتياب .

ـ لا فرصة لي هنا لأن جسمي لا يتحمل برودة هذا الطقس .

أجفلت في داخلها لهذه الكذبة . . فقد أمضت كل شتاء من حياتها في وايومنغ، تعمل في ظروف أكثر سوءاً . لكن الكبرياء بداخلها لم تسمح لها بإخباره، هو أو أي شخص آخر في مزرعة برتسوم، أن الرئيس رفض استخدامها، ولأسباب سيوافق الجميع عليها تماماً لو عرفوا بها .

كانت ممتنة للقصة التي رواها كوبر لرجاله، فحسب ما يعرف أي واحد منهم، أن الباص فاتها في ردهاوس وكانت ستعلق في البلدة بسبب العاصفة لولا عرضه عليها الإقامة في المزرعة، ومع وجود اليانور مرافقة لها، أعطاها عدم كشفه الحقيقة، أكان بدافع اللطف أم لا، الفرصة لتكون مقبولة على أساس العمل والقدرة . . ولقد قُبلت على أساس هذه المؤهلات من قبل، لكنها كانت «رئيسة» فريق عملها . وكان من دواعي سلواها أن تعرف بأن هناك من يقيّم مهارتها .

ضحك جارد لها، وقال :

ـ أستطيع القول إن هذه أعلى صيحة لثور سمعتها هذا الأسبوع . . أنت من عائلة مزارعة من مكان ما في وايومنغ إذن . . إن لم تكوني من وايومنغ، فأنت من مونتانا .

أنهت إيريس قهوتها، وأحست بارتباك دون أن تعرف . . ودون أن تنظر إليه، أقفلت «ترموس» القهوة .

ـ لا يعني مجرد أنني تربيت في مزرعة في وايومنغ، أنني أحب الشتاء .

لكن الحقيقة أنها تحب الشتاء في وايومنغ، جيداً كان أم سيئاً، وقبل أن يقول جارد المزيد انفتح الباب الشرقي للسقيفة . . ونفخ الثلج والريح الباردة إلى الداخل مع ثلاثة رجال دخلوا .

نادى جارد بروح مرحة :

ـ بحق الله، حان الوقت ليريحنا أحد هنا أيها الرئيس .

رحبت إيريس بانقطاع الحديث، وتقدم جارد ليقدم إيريس إلى الرجلين الآخرين المرافقين لكوبر . . كان رايكو أطولهما وتالبوت الأقصر هزت إيريس رأسها لكل منهما تحية ووقفت صامتة إلى أن انتهى جارد من كلامه . . أبقى جارد الرجلين، ثم تابع الحديث من حيث تركه لكنه أخذ يوجه التعليقات إلى كوبر .

ـ يبدو أن هذه العاصفة جاءتنا بالحظ، فقد كنت تنوي استخدام رجلين للعمل هنا، ثم وصلت الآنسة إيريس فجأة، إنها ثابتة الجأش كما يجب، ومستساغة للعين أكثر من أي شخص عمل لديك .

احمر وجه إيريس لكلام جارد المتحمس . لكن الخوف تمسك بها، فمع كل كلمة، كان تعبير وجه كوبر يزداد تجهماً . . بدت نظرته السوداء وكأنها تتهمها بتدبير أمر كسب ثقة جارد واستغلال نفوذ العجوز معه، كي تدفعه إلى إعادة التفكير بإعطائها فرصة العمل .

وقفت إيريس متصلبة تنتظر بقسوة أن يوقف كوبر جارد عند حده . . لكنها دهشت لأن كوبر لم يفعل ذلك، بل أسرت نظرته الخشنة نظرتها، وهز جارد رأسه الأبيض ثم ضحك ليقول :

ـ أعتقد أنني تدخلت فيما لا يعنيني

التفت كوبر إليه، فتابع :

ـ أعرف . . أعرف . . لو أنني آخذ دولاراً لكل مرة أتدخل فيما لا يعنيني، لامتلكت نصف المقاطعة .

قال كوبر بصوت منخفض :

ـ لقد انتهى عمل الليلة.

فهمت إيريس الإشارة.. والتقطت «ترموس» القهوة، ثم خرجت إلى الممر بين الحظائر، وسار كوبر أمامها إلى الباب بينما كانت تزرر سترتها بسرعة.. ثم ارتدت قفازيها بينما كان كوبر يفتح الباب ويتركها تخرج قبله.

لسع الثلج المدفوع بفعل بالريح وجهها.. وأخذ البرد المرير يقطع دون رحمة الطريق إلى داخل سترة الجينز الخفيفة. شدت طرف قبعتها لتحمي عينيها، وشقت طريقها في الثلج نحو مخازن الغلال الكبيرة، ثم إلى المنزل.

تحولت العاصفة إلى أسوأ مما كان مقدراً لها.. وبينما كانت إيريس تدير وجهها عن الريح بما يكفي لتفتح عينيها، وصلت العاصفة إلى درجة التجلد.. لقد وضع حبل على طول الممر تحسباً من ضياع السائرين عن الاتجاه الصحيح.

أحست إيريس بيد كوبر تمسك مرفقها ما طمأنها وهما يخوضان في الثلج المتراكم وتحولت الدهشة التي أحست بها بسرعة إلى عرفان بالجميل.. فجسده القريب منها أخذ يشكل مانعاً للريح.. قاومت الإحساس بأنها في كنفه وهو يسير إلى جانبها، وساعدتها قوته في السير فوق الثلج.. عندما أحس بها ترتجف، ترك مرفقها ولف ذراعه حولها وراح يشدها بقوة إلى جانبه، بحيث اضطرت إلى وضع ذراعها حول خصره.

أخذ ينتشر فيها إحساس غريب وهما يحضنان بعضهما بعضاً ليقاوما قوة الريح.. مع كل هبة قوية، بدا وكأنه يميل أكثر نحوها ليحميها ولم تستطع هي سوى أن تتمسك به أكثر.

غشى ارتياحها للوصول إلى حمى المنزل، الخسارة التي أحست بها حين فتح باب الشرفة المسقوفة وتركها فوراً.

قال وهو يدفعها إلى الداخل:

ـ من الأفضل أن توفري هذه السترة اللعينة للصيف.. إذا بقيت غداً هنا، فستستخدمين السترة الواقية من الريح التي أمرت اليانور بالبحث لك عنها.. وإلا فلسوف..

راح ينظر إليها بصمت، ثم استدار لينفض الثلج عن حذائه عالي الساقين، وراح ينزع عنه الثياب الخارجية.

فعلت إيريس مثله، حاولت أن تلاحظ الحركات المتوترة التي دلت على غضبه. ولو أن السترة لم تكن هي السبب.. بل واقع أنها عالقة هنا بسبب الثلج ولوقت لا يعرف مداه.. وأن المزرعة ستصبح مقطوعة فعلاً لأيام أو حتى لأسبوع بسبب العاصفة. وضمنت أن كوبر لن يعجبه فشل خطته بالخلاص منها.

من ناحية أخرى، لم يبدُ لها رجلاً يستسلم للغضب حين لا تجري الأمور كما يريد، فهو على الأرجح رجل، يواجه المشكلة مرات ومرات إلى أن يتغلب عليها أو يكمل طريقه دون التفكير بها. أهدتها الفكرة بسمة خفيفة على شفتيها.. والدها كان هكذا. ولقد أصبح هذا تقليداً عائلياً خدمها جيداً في إدارتها للمزرعة حتى يوم اعتقالها.

التفت كوبر إليها في الوقت الملائم ليرى شبح الألم يمر على وجهها.. فأدارت رأسها على الفور تبحث عن الفرشاة لنزع ما علق من ثلج على بنطالها.

شيء ما في كوبر بدا أكثر ليناً وهي تفعل ذلك، فمع كل جهدها لإظهار واجهة رزينة، كان هناك الكثير من الضعف تحت تلك الواجهة.. إنها تؤثر عليه، تشق طرقاً داخلية إلى أماكن لا يريدها أن تصلها.

الأمر السيء أنه أحس بانجذاب نحوها منذ وقعت عيناه عليها.. بعدما راقبها تجفف شعرها قرب النار ليلة أمس، وعرف أنها نامت في الجهة المقابلة له من الممر، وأنها كانت قريبة منه طوال النهار، جعل منه هذا نزقاً، كان شعرها الطويل المجعد هو كل ما يستطيع التفكير به متراقصاً على نور النار، وكيف أن ثياب عملها كانت تتناسب تماماً مع شكلها الأنثوي.

خلال السير معاً إلى المنزل. أقنع نفسه أنه إنما يُظهر الشهامة في جذبها إلى جانبه ليحميها من الريح المريرة، لكن ما إن أحس بنعومتها الأنثوية حتى أدرك غلطته.. فقد قفزت الرغبة فيه وكأنها الحمى، وسُرَّ فجأة لأن سترتها لم

تكن سمبكة بما يكفي لتدفئتها.

لقد فكر بشيء ليس من صالحه وها هو الآن يدرك النتيجة السيئة.. إذا لم تنته العاصفة قريباً، فإن الإحاسيس التي حركتها فيه، قد تقود إلى متاعب حقيقية.

أجل.. متاعب.. ابتسم وهو ينظر إليها تزيل الثلج عن بنطالها وحذائها السميك.

ـ من الأفضل أن تدعيني أفعل ذلك.

أخذ الفرشاة منها وأشار إليها لتستدير.. كانت قد أفلحت في تنظيف البنطال من الأمام، لكن المؤخرة دائماً عصية، إضافة إلى ذلك، كان كلما استطاع أن يدخل بها إلى المنزل كلما استطاع أن يكسر بسرعة أكبر هذا التجاذب العاطفي الذي يحس به نحوها.

وقفت إيريس تنتظره لينفض الثلج عن بنطالها.. كان سريعاً، وحين انتهى، عرضت رد الخدمة.. فقال متجهماً:

ـ لا بأس بالنسبة لي.. من الأفضل أن تنظفي نفسك، فالعشاء في السادسة.

حكت لهجته الخشنة أعصابها، الأمر الذي أثارها.. إنها متعبة وتشعر بتشابك حقيقي للمشاعر، مع مسيرتهما معاً إلى المنزل.. إنها في الواقع لم تفعل شيئاً على الإطلاق لتثيره.. لقد بدأت تتساءل عما إذا كان يوزّع مزاجه السيء على الجميع مثلما لاحظت أكثر من مرة خلال النهار، أم أنه يوفر معظم هذا المزاج لها فقط.. وهذا ما لن تتحمله.

قالت وهي تنتزع منه الفرشاة وتهاجم الثلج على بنطاله الجينز:

ـ اسمع برنسوم.. أنا متوترة من اضطراري للبقاء هنا مثلك تماماً.. وأنا مدينة لك ببعض العمل في المقابل، لأجل الطعام والمكان الدافىء بعيداً عن العاصفة.. لكنني لا أعتقد أن هذا يشمل إرهابي بعبوسك والصراخ في وجهي في كل مرة أغاظك شيء ما.. فإن كنت قد أخطأت في شيء، فقل لي.

وأتمت دورة التنظيف حوله بسرعة وشراسة، ثم قالت:

ـ لكن إذا كنت مواطناً شريفاً أكثر من اللازم ولا تتحمل خارجة على القانون مفرج عنها حديثاً، أعتقد أنك مضطر لأن تنتظر.

أعادت له الفرشاة، دون أن يفوتها الذهول البادي على وجهه.. وقبل أن يستعيد وعيه، استدارت ودخلت بسرعة عبر المطبخ.

***

www.elromancia.com

٤ ـ الشيطان الأسود

كانت إيريس قد تعاملت مع رعاة بقر قساة من قبل، وكان منهم من لم يكن يرغب في تلقي الأوامر من أنثى، لكن هذه كانت المرة الأولى التي تواجه فيها رجلاً لم يكن ملتزماً بالعمل لديها.. لم تكن يوماً عاملة مزرعة، ولم تعمل تحت إمرة أي رب عمل باستثناء والدها.. ولقد تربت مثلما تربى كوبر برتسوم، لكنه لا يعرف ذلك.

أطلقت العنان لابتسامة صغيرة مرحاً، لقد اتصلت بالمحامي ذلك النهار آملة أن يتوسط لها مع كوبر. لكنها علمت أنه قد غادر المدينة، ولا يمكنها الاتصال به قبل نهاية الشهر.. لعل ذلك أفضل.. فحتى لو تمكن أليك من إقناع كوبر بالأمر، فإن ما حدث في الشرفة المسقوفة قد يتسبب بطردها على أية حال، الأمر الذي أقلقها.

ربما لو استمرت العاصفة وواظبت على العمل مع رجال كوبر، يمكنها عندئذ أن تجد عملاً في مكان ما.. فهي ليست عامل المزرعة الوحيد الذي يملك سجلاً إجرامياً.

التقطت كنزتها الزرقاء ذات الياقة المثلثة وارتدتها فوق بلوزتها قبل أن تتجه إلى المطبخ لتتناول طعام العشاء. جلست على الطاولة، أدهشتها إليانور لاستقلالها بصينية ومشاهدتها التلفزيون بينما كانت تتناول طعامها وبدا جلياً على وجه كوبر أنه كان يعتمد على اليانور لتحول اهتمام ستيفاني عن إيريس.. ولم تشعر بالارتياح وهي تتناول طعامها، بينما راحت الطفلة تقطع الصمت بانتظام.

ـ دادي.. متى أستطيع الذهاب لرؤية العجول الجديدة؟

نظر كوبر إلى ابنته متصلباً:

ـ يبدو أنك سألتني هذا ثلاث مرات على الأقل هذه الليلة.

قالت ستيفاني وهي تمضغ الطعام:

ـ بل أربع مرات دادي.

ـ حسن جداً.. أربعة، وليس من الأدب الكلام وفمك مليء بالطعام.

ابتلعت ستيفاني ما في فمها بسرعة:

ـ لكن العجول كلها ستولد.. وبسبب هذه العاصفة اللعينة سيفوتني رؤية كل شيء!

ـ راقبي لسانك أيتها السيدة الصغيرة.

ـ اللعينة ليست شتيمة أبي.

ـ إنها ترمز إلى شيء لا يجب أن يقال، معلمة مدرسة الأحد كلمتك عن ذلك منذ فترة قصيرة.

احمرت وجنتا ستيفاني، ونظرت بسرعة إلى إيريس وكأنما لتعرف ردة فعلها على هذه المعلومات.. وبقيت إيريس حذرة في إبقاء تعابير وجهها محايدة، وتابعت تناول طعامها.

هبت الصغيرة تدافع عن نفسها:

ـ إنها ليست سيئة مقارنة مع الكلمات التي تقولها أنت يا أبي.

وساد الصمت في الغرفة.

سحبت إيريس المنديل من حجرها، واستخدمته لإخفاء صوت يشبه القهقهة أكثر من شبهه بالسعال. كانت تصغي للحديث المتبادل بين الأب وابنته، وتلاحظ هدوء كوبر بالرغم من تصميم الطفلة على إخضاعه في موضوع العجول..

نظر كوبر إلى إيريس محذراً، وقال بعناد:

ـ هناك فرق كبير بين كلمات الشتم المعتادة وبين ذكر لعنات الله أيتها السيدة الصغيرة.

ـ لكن السيدة كورلي تقول إن النوعين هما من الإثم.. وأعرف هذا لأنني أخبرتها بكل ما تقوله أنت من شتائم.

واضح أن كوبر لم يعد يجد الكلمات المناسبة، أكانت لعنات أم غيرها في هذه اللحظات العصيبة. وبدا غاضباً، ولم يكن هناك شك بشأن الاحمرار الذي أخذ يزحف إلى وجهه.. لكنه كان كذلك عاجزاً أمام منطق وتصرف ابنته ذات السنوات الست.. ولم تكن إيريس لتتصور أبداً أن أمثال كوبر برتسوم يمكن أن يبدوا عاجزين هكذا أمام طفلة صغيرة.. كان لهذا تأثير كبير في انطباعها المسبق عنه.

ردت ستيفاني على نظرة أبيها بالمثل، عيناها الكبيرتان البنيتان تحملان مزيجاً من البراءة والتحدي.

أخيراً قال كوبر:

ـ حين تنهين طعامك أعتقد أنه بإمكانك ترك الحلوى، والذهاب إلى النوم.

بدا الرعب على وجه ستيفاني:

ـ لكننا سنأكل حلوى بالشوكولا!

ـ أنا وإيريس سنأكلها.. يمكنك الحصول على قطعة مما سيتبقى غداً إذا فكرت ملياً بنوعية الكلمات التي يجب على فتاة في سنك الابتعاد عنها.

دفعت ستيفاني بطبقها الفارغ بعيداً، ونظرت بشوق إلى قالب حلوى الشوكولا. أطلقت تنهيدة مصطنعة، أرجعت كرسيها عن الطاولة متحاشية النظر إلى أبيها، وسارت نحو الردهة في الخارج ثم نحو غرفتها، وراحت تجرجر قدميها في ترنح طفولي.

قال آمراً إيريس:

ـ لا أريد سماع كلمة منك.

وضرب حبة لوبياء بشوكته ودسها في فمه.

حاولت إيريس الحفاظ على وجه رزين.. لكن منظر الغضب على وجه كوبر هزمها. فبدأ فمها يرتجف.

أخيراً قال مدمدماً:

ـ حسناً.. يا للجحيم.. هيا اضحكي.

وتوقفت عن محاولة كبت ضحكها.

قال وهو يرمي شوكته:

ـ عمل الأبوّة هذا يزداد صعوبة كل يوم.

ثم تراجع في كرسيه وأخذ ينظر إليها بثبات.

تغيّر الجو في الغرفة في ثانية فلاتت نظرته القاسية.. عيناه السوداوان لمعتا سلوانا.. فارتسمت ضحكة صغيرة على وجهه واستسلم للمرح وراح يضحك.

ذاب حاجز كان بينهما.. بالنسبة لأيريس رأت أنه من المناسب أن تضحك، أن تخرج من تحت العواطف الضاغطة الناتجة عن الماضي، إلى إحساس مشمس مشرق.

تلاشى ضحك إيريس أولاً، لكنه ترك ابتسامة جعلت عينيها الزرقاوين تلمعان. لاحت في عينيه السوداوين إمارات الحدة وراح يتأملها بنظرة طويلة وقلقة.

بعد لحظات انقلب قلقه إلى فقدان للثقة.. وكأنه تذكر فجأة من هي ولماذا لا يريدها في منزله، عندئذ مات إحساس إيريس المشرق بسرعة.

وضعت منديلها إلى جانب صحنها، دفعت كرسيها إلى الوراء ووقفت استعداداً للمغادرة:

ـ هل تريد مني أن أساعدك في تنظيف الطاولة؟ أعتقد أنني سأتخلى عن الحلوى.

حدق طويلاً في عينيها قبل أن يجيبها:

ـ سأهتم بتنظيفها.. اذهبي أنت.

اتجهت إلى غرفتها، بدأ العمل الشاق طيلة النهار يؤثر عليها وهي تتحضر للنوم وترفع الأغطية.. عدّلت إنذار الساعة لتستيقظ في الخامسة صباحاً، ثم اندست بين الأغطية.

إثر الهدوء الذي خيم بعد إطفاء النور، استولت عليها ذكرى الإحساس الغريب الذي أحست به حين سارت مع كوبر عبر العاصفة إلى المنزل. لقد أحست بالأمان وهي ملتصقة بشدة إلى جانبه، لكن ما كان يقلقها لم يكن هذا الإحساس بالأمان.

لم يكن لديها يوماً أي رد فعل قوي كهذا أمام لمسة رجل لها.. لقد تربت بين الرجال، وتعلقت بواحد أو اثنين منهم. لكن لا شيء من كل ذلك كان ليعينها إزاء انجذابها نحو كوبر.

أقنعت نفسها أنه من الطبيعي أن تشعر نحوه بما شعرت.. إنه، وبأكثر من طريقة، صنوها. من أصوله العائلية إلى شخصيته القاسية، مع العلم أنها لا ترهب بسهولة الرجال القساة، العنيدين، لأن والدها كان هكذا.. مثله مثل والدها، أظهر كوبر جانباً رقيقاً مع ابنته، ونوعاً فاتناً من الصبر المحبط.. وفي الوقت عينه اصطدم بالعجز عند تعقيد العملية.. مهما كان كوبر صارماً معها، فهي كانت تعرف أنها لن تراه مرة أخرى في المزاج ذاته بعد مراقبته مع ابنته.

أجل.. من الطبيعي أن تكون ردة فعلها قوية بالنسبة له.. لكن كوبر الرجل القاسي البدائي، لم يكن آخر من هم من نوعه.. فهناك رجال آخرون مثله في العالم.. وبالتأكيد سيكون لها ردة الفعل عينها.

ارتاحت إيريس بعدما اهتدت إلى حل نظري لمشكلتها ثم استسلمت للنوم برغم انهمار الثلج.

برغم انهمار الثلج بخفة في الصباح، إلا أنه لم يكن هناك تغيير ملموس في الرياح القاسية وأكداس الثلج المتراكمة.. أما الحرارة فقد قاربت الصفر.. هكذا لم تتردد إيريس في إقفال سحاب السترة الواقية من الريح التي وجدتها لها اليانور فوق سترة الجينز، قبل أن تخرج مع كوبر إلى الحظائر.

ـ هل تمانعين في بعض واجبات الاسطبلات؟

لم يبدُ عليه الارتياح لطلبه، توقفا في الاسطبل الكبير حيث الجياد التي

لا تعتمد على الرعي الشتوي.. ارتجفت شفتا إيريس وفكرت: كوني حذرة فيما تتمنين! وتذكرت أنها قالت لنفسها إنها لن تمانع في تنظيف اسطبلاته ثلاث مرات في اليوم، طالما تتمكن من القيام بأعمال المزرعة.

أجابت وهي تفتح سحاب سترتها الواقية:

ـ لن أمانع أبداً.

ما إن أرشدها كوبر إلى مكان كل شيء وتركها في الاسطبل، حتى بدأت العمل. قادت كل جواد من حظيرته وربطته إلى الممر بين الحظائر لتنظف حوافره بشكل جيد.. وسرّها أن تجد أنها لا تزال تتقن عملها.. أكملت ما بدأت به بطريقة رتيبة ثابتة. تفحصت كل جواد، ونظفت حظيرته، ووضعت قشاً نظيفاً فيها قبل إعادة الحيوان إليها وإعطاءه العلف.

قامت بعدة رحلات قصيرة إلى الخارج لرمي محتويات عربة اليد، قبل أن تسرع عائدة إلى الداخل.. سمعوا من نشرات الأخبار في الراديو أن الطقس لن يتحسن خلال الساعات القليلة القادمة.

أحست إيريس بالارتياح وهي تعمل.. لقد أمنت لها العاصفة، برغم من صعوبتها على الرجال والماشية معاً، مكاناً تقيم فيه ولو لوقت قصير. الأمر الذي خفف عنها ضغط التفكير في مصيرها. كانت قد أنهت العمل في الحظائر وأفرغت العربة ووضعتها مكانها، عندما انفتح الباب ودخل جارد.

ـ أمر الرئيس بوضع القش في الحظيرة القائمة في الزاوية، وتحضير بعض العلف فيها.. سننقل أحد الجياد الذكور إلى هناك ما أن نمسك به.

تراجع الرجل ليخرج، ثم تردد:

ـ بالمناسبة.. الشيطان الأسود الذي سننقله إلى هنا سيء الطباع سريع الغضب، فانتبهي لنفسك.

ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

نشرت إيريس القش النظيف في الحظيرة الكبيرة القائمة في الزاوية بسرعة، ووضعت بعض الشعير. وما أن انتهت، حتى أسرعت إلى الباب تفتحه قليلاً، فبدا لها كوبر وجارد يقودان الجواد الأسود بينهما.

لكن الجواد لم يكن ينقاد جيداً. . وبرغم من الحبلين المتينين الملتفين حول عنقه، كان يتراجع ويرمي نفسه يمنة ويسرة أثناء سيره. . وما يكاد الرجلان يسيطران عليه، حتى يقفز إلى الأمام إلى أن يشتد ضغط الحبلين عليه بشكل مؤلم فيحاول القفز عندها على قوائمه الخلفية.

خرجت إيريس لتفتح الباب على مصراعيه، كانت هبات الريح قاسية جداً اضطرت معها إلى إغماض عينيها لاتقاء الثلج الذي يملأ الهواء ويجعل الرؤية صعبة. كان الجواد في هذا الوقت مستمراً بمقاومة كوبر وجارد في جهدهما لقيادته نحو الاسطبل.

حين استسلم الحيوان أخيراً وانجلى الجو المثلج، نظرت إيريس إليه عن قرب. . هزت كيانها الذكرى لدى تخطي الجواد عتبة الاسطبل بينما انهمر الثلج في أعقابه بغزارة.

صاحت: بلاكي!

لكن اسم الجواد الكبير ضاع في هدير العاصفة الأمر الذي صدمها، فتركت الريح تدفعها والباب معاً إلى الداخل. أخذت يداها ترتجفان أثناء وضعها الرتاج في مكانه إذ أنها لم تستطع أن تشيح ببصرها عن الجواد الذي عاود مقاومة الحبال.

أحست بدوار إذ أدركت أن هذا جوادها. لقد ساعدت في ولادته، ربته، ودربته بنفسها. كان لها خطط كثيرة له. ثم ما لبثت هذه الخطط أن انهارت مع اضطرارها إلى بيع كل شيء. . أما الآن فقد هزتها رؤيته.

بينما كان الحيوان يقاوم الدخول إلى الحظيرة، صاح جارد قائلاً:

ـ أيها الناري اللعين.

لم يقل كوبر شيئاً، لكن وجهه كان يدل على إصرار صلب.

سيطر عصيان «بلاكي» على إيريس فبدت مصدومة. . إنه غاضب ويبدو متوحشاً ما جعلها تجد صعوبة في تصديق كون ذلك الحيوان الذكي، طيب السلوك، هو نفسه الذي ربته.

خطر ببالها أن تعرض تولي أمره. لكن بلاكي كان خارجاً عن السيطرة

الآن، وهي تشك في أن تتمكن من تهدئته، حتى ولو تعرف إليها.

خفق قلبها ألماً، حدث له شيء ما ليجعله يتصرف هكذا. . وما إن تركت الباب وتقدمت نحوه، حتى رأت الدليل القاطع عما حدث.

لقد رأت ما أرعبها، فجلده اللماع يحمل علامات ضرب قاسية، ولو أنها خفتت مع الزمن واختفت تحت شعره الشتوي، لكن كان هناك ندوب جروح بارزة من الكتفين حتى المؤخرة. . حين هدأ أخيراً بما يكفي ليلاحظ وجودها، أدار رأسه الفخور نحوها لترى ندبتي جرحين فوق أنفه الطري، ولو أنهما شفيا جيداً بحيث لا يظهران كثيراً، إلا أنهما كانا جليين بالنسبة لها ولعينها الخبيرة، وكأنهما لا يزالان حديثين.

انفجر في داخلها غضب لم تعرف مثله من قبل. إذا كان كوبر برتسوم، أو أي رجل يعمل لحسابه مسؤول عن هذا، فستجلده بالسوط بنفسها.

أخذت نفساً عميقاً محاولة تهدئة نفسها. لا كوبر ولا جارد، يمكن أن يفعل شيئاً غير سوي معه، حكماً بالطريقة التي يتعاملان بها معه. .

اقتربت إيريس من الجواد. . فأدار رأسه مجدداً نحوها. . ثم جمد فجأة، كان يقف كالتمثال لولا رجفات ثائرة خرجت من فتحات أنفه، ثم شد أذنيه إلى الأمام، وأخرج همهمة تساؤل. . صهل وتراجع ليرتفع بضع إنشات عن الأرض وكأنه يحاول اختبار قوة الحبال. . ثم نزل، وأخذ يتراقص مشاكساً. . لكنه لم يتحرك نحوها، ولم يعط أي دليل آخر على معرفته لها.

شد كوبر الحبل. . وتحدث إلى الجواد بهدوء. . فدخل الحظيرة بشكل لم يتوقعه أحد.

خفت حدة توترها إثر دخول بلاكي. . ونزع كوبر الحبال عنه قبل أن يقفل باب الحظيرة جيداً. . قفز الجواد على الفور في الهواء يصهل ليسجل اعتراضه على سجنه، وتعالى صوت حوافره بحدة على الخشب.

قال جارد معلقاً:

ـ لا أعتقد أن هذا العنيد سيسمح بالتعامل معه دون مقاومة، وأعتقد أن أفضل ما نرجوه منه نسل جميل وسيم وفرصة من عدم الاستمرار.

قالت إيريس دون أن تتمكن من إخفاء رجفة الغضب من صوتها:

ـ سيكون نسله من أفضل الجياد في المقاطعة. وأنت تعرف مثلي تماماً أن هذا النوع من المشاكسة، لا يأتي إلا من جراء الضرب.

نظر كوبر إليها. كانت عيناه السوداوان تمران فوقها بسرعة قبل أن تلتقيا بالنار الزرقاء في عينيها.. ثم رفعت رأسها قائلة:

ـ بعد معاينتي للطريقة الجيدة التي تعتني فيها بجيادك الأخرى.. لا أعتقد أنك تسمح لأي كان أن يسيء معاملة أي حيوان مثل هذه الإساءة، إلا إذا كنت أنت صاحب السوط القاسي.

تدلى الاتهام في الهواء ثقيلاً كالرصاص بينهما.. وقست أسارير كوبر، وزاد التوتر في عينيه بشكل خطير.

ـ أي رجل يعمل لدي ويفعل هذا بحيوان سيناله مثل ما نال منه.. مضاعفاً.

وكأن جارد لم يكن واثقاً من أن الرد سوف يخمد نار التوتر بينهما، فتدخل:

ـ ذهبنا ـ أنا والرئيس ـ في الخريف المنصرم، ووجدناه.. كان ممزقاً وشرساً.. لكن كوبر أحب سلالة دمه وقرر أن يخاطر بشرائه.

هدأت كلمات جارد بعضاً من حدة غضب إيريس، وراحت تنظر بعطف إلى الجواد الكبير الهادىء الآن، ولو بشيء من التوتر. سوف يغضب كوبر كثيراً لو عرف صلتها بالجواد. كان ارتيابه بها قوياً بما يكفي بسبب إدانتها له.. إذا لم يتذكر أن أوراق الجواد تثبت أن اسم مالكه الأساسي أ. برايبون.. ولم يعرف أنها هي، فلن تعرض عليه هذه المعلومات.. إذ أن ملكيتها السابقة للجواد إضافة إلى ما يعتقده عنها، قد يدفعه إلى منعها من دخول الاسطبل والوصول إلى بلاكي.

وإذا كان هناك شيء واحد ترغب فيه قبل مغادرة مزرعة برتسوم، فهو الوصول إلى الجواد.

قال كوبر وعيناه تحرقان عينيها:

ـ هل هذا كاف بالنسبة لك؟

احمرت وجنتاها غضباً، وردت متصلبة:

ـ أجل.. إنه كاف.

ـ إذن، إذا كنت قد أنهيت عملك هنا، فمن الأفضل أن تعودي إلى المنزل.

كان هناك ساعتان على الأقل قبل أن تقدم اليانور الطعام، وعرفت إيريس من توتر كوبر أن إرسالها المبكر هكذا إلى المنزل سيتركها على مقربة من ابنته. التوت شفتاها بمرارة، وبقيت حيث هي تنتظر أن يسلمها عملاً ما، يؤخر عودتها.

وكما أصبح من عادة جارد، فقد تدخل:

ـ يمكنني المساعدة في إصلاح المربط المكسور في سقيفة الجياد الأخرى.

نظر كوبر إلى إيريس مرة أخرى، ثم استدار ليلف الحبال قائلاً بتوتر:

ـ هذا عائد لأيريس.

ابتسمت إيريس لجارد:

ـ تبدو طريقة جيدة لتمضية الوقت.

إن جارد لطيف معها.. وهي لم تعد تطمح بإيجاد عمل في مكان ما فقط، بل ربما تستطيع معرفة أخبار الجواد بلاكي.

بدا السرور واضحاً على جارد:

ـ عظيم.. سنقصد سقيفة المعدات لنأخذ ما يلزمنا. وأعتقد أننا سنصلح القسم الأكبر قبل الظهر.

اتجه جارد إلى الباب، وكأنه متشوق إلى بدء العمل.. وراحت إيريس تنظر بتردد نحو الجواد الأسود الواقف بهدوء، عيناه السوداوان الكبيرتان مسمرتين عليها وفتحات أنفه متسعتين وكأنه يحاول التقاط رائحتها، لكن الحذر منعها من المكوث طويلاً.. لذا أسرعت وراء جارد، وراحت تعدل ملابسها لتقاوم البرد القارص وهي تخرج.

٥ ـ المعركة الأولى

خرجت إيريس إلى الشرفة المسقوفة عبر الباب الخلفي وأغلقته بهدوء. . انتهزت فرصة غياب كوبر عن النظر، وقررت التسلل خارج المنزل. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة، والريح العاصفة مستمرة. . شدت أطراف قبعتها على رأسها، وسوّت شالها لحماية وجهها أكثر، ثم سارت في الممر من المنزل إلى الاسطبل. . تنبؤات الطقس قالت إن الثلج لن يسقط مجدداً وإن الريح ستنشط مع ظهر اليوم التالي. . إقامتها في مزرعة برتسوم تشارف على النهاية، وهي تعي أن هذه قد تكون فرصتها الوحيدة لرؤية بلاكي وحدهما.

كانت وجارد قد أصلحا المربط المكسور في حظيرة بلاكي القديمة، إضافة إلى البوابة الفاصلة بين حظيرته وحظيرة «هوپر» الفحل الآخر في المزرعة.

حسب رواية جارد، حطم بلاكي مربطه وحطم البوابة ثم دخل حظيرة الفحل الأكبر سناً في الجهة الأخرى من الاسطبل، حيث بدأ الفحلان في القتال. كان بإمكان «هوپر» أن يبقى بعيداً سالماً في حظيرته الواسعة، لكن تحدي الحيوان الأصغر له، جرّه إلى متناول أسنان بلاكي الحادة. . اعتنت إيريس وجارد بالعلامتين على عنق «هوپر» لكن الجرح لم يكن خطراً. .

لم تحصل إيريس على أية معلومات عن وظائف شاغرة من جارد. لكنها اضطرت إلى المحافظة على الكذبة التي نسجتها حول رغبتها في إيجاد عمل أقرب إلى الجنوب. . وتفادت طرح سؤال مباشر على جارد كان من شأنه أن

يفضحها.

لكنها عرفت شيئاً عن بلاكي. . فما قاله عن الجواد والصعوبات التي تسبب بها لكوبر، كانت تكفي لأن تجعلها تعطف عليه.

منذ ستة أشهر أي منذ إحضار بلاكي، عانى كوبر من عدة إصابات منه، تراوحت بين العض المؤذي الذي تطلب ثلاثين غرزة إلى ضربات تسببت بارتجاج فمه بعد أن رماه الجواد إلى جانب الزريبة. . قص جارد عليها محاولات كوبر لركوب الجواد لأول مرة وكانت أكثر بقليل من رواية حربية.

لكن الجواد رضخ أخيراً إلى كوبر فامتطاه الأخير. . لكنه بقي شرساً لا يمكن التنبؤ بمزاجه. . من رأي جارد أن يستخدم فقط للتوالد، وهو رأي بدأ كوبر يوافق عليه برغم حبه للجواد.

أحست إيريس بانكسار قلبي، حتى أنها كادت لا تعي ملاحظة جارد حول لصوص الماشية الذين كانوا ينهبون مواشي المزرعة في السنة المنصرمة. استهدفت أولى السرقات الماشية في المزارع الصغيرة في المنطقة. . كان العدد الصغير يدل على عملية صغيرة. . ثم كبرت، وبدأت السرقة المنظمة. . ومما قاله جارد إن الجميع يؤمن أن هناك مجموعتين من اللصوص تعملان بطريقتين مختلفتين.

كانت السرقات في مقاطعة إيريس هكذا، لكن مع مجموعة واحدة يقودها بلاك. هل من الممكن أن يكون هو وراء هذه السرقات؟ لقد اختفى بلاك منذ ليلة اعتقالها لكن ماذا لو أنه اتجه بعد إرسالها إلى السجن ليعيش في هذا الجزء من وايومنغ، ويبدأ نشاطه من حيث أوقفه؟ لم تتمكن من تهدئة ضربات قلبها المتسارعة إلا بعد أن أقنعت نفسها أنه لا يهم إذا كانت محظوظة بما يكفي لينتهي بها الأمر في مقاطعة واحدة معه. فقد رفض كوبر استخدامها، وأشار أن ما من صاحب مزرعة مستعد لفعل ذلك هنا، وعلى الأرجح سوف تغادر المكان في الصباح الباكر. .

وصلت إيريس باب الاسطبل. كان قلبها مثقلاً وهي تدخله، لا سبب

يدعوها للاعتقاد أن الجواد سيتصرف بشكل أفضل معها.. ربما تلقى معاملة سيئة جداً.

كان هناك بضع مصابيح تنير الممر بين الحظائر. فتح أحد كلاب المزرعة المستلقي قرب الباب عينيه يراقبها، لكنه لم يتحرك لوجودها بل اكتفى بهز ذنبه. أقفلت الباب الكبير، وأكملت طريقها عبر الممر إلى الإسطبل.

همهم أحد الجياد بصوت منخفض لوجودها وهي تمر قربه، فمدت يدها تداعب أنفه. ثم سمعت بلاكي يطلق أنيناً طويلاً منخفضاً، انتهى بصهيل متوتر عندما برزت أمامه.

تراجع الجواد من جانب الممر شاخراً ثم توقف، واستدار عائداً ليكشر عن أسنانه بشكل شرير.. ثم هاجم باب الحظيرة، لكنه توقف لأنه كاد يصطدم بالباب..

وقفت إيريس دون حراك لحظات طويلة، لتترك المجال للجواد كي يتكيف مع وجودها.. ثم انتزعت قبعتها بلطف وفكت الشال عن عنقها.. راقبها بلاكي بقلق وهي تنزع السترة الواقية وسترة الجينز من تحتها.. لم يكن هناك أي أثر للمعرفة في عينيه السوداوين. وتلاشت آمال إيريس لكنها بدأت تتكلم، ولو أن الانفعال الذي تجمع في حنجرتها كاد يخنق صوتها.

أدارت الجهة الناعمة من سترتها نحو الجواد بتهور، وضغطتها على الباب المغطى بالأسلاك.. أرجع الجواد رأسه إلى الوراء وكأنها ضربته، لكنه لم يتراجع.

أخيراً وجدت السبيل إلى صوتها لتقول هامسة:

ـ أتذكرني؟ هيا يا رفيقي الكبير.. ليست السنتان وقتاً طويلاً جداً.

مد الجواد أنفه نحو السترة بشيء من العدوانية. ثم تراجع، وعاد إلى ذلك مرة أخرى، وكأن الرائحة عنت له شيئاً.

تابعت إيريس الإمساك بالسترة بعد شدها إلى الشريط، تنتظر بصبر بينما راح الجواد يتفحصها. وبدا أن الجواد الكبير قد هدأ قليلاً، فأخفضت السترة ببطء بحيث لم يعد يفصل بينهما سوى النصف الأعلى من الباب..

ولم يتراجع الجواد، بل وقف يراقبها بحذر.

ـ يبدو أنك مررت بأوقات صعبة أيها الفتى.

استدارت أذناه إلى الأمام كأنهما تلتقطان نبرة صوتها.. تشجعت وفتحت النصف الأعلى من الباب بينما كان الجواد يراقب كل حركة منها..

مدت إيريس يدها بحذر، وراحت تتكلم بصوت لطيف إلى الجواد الذي مد أنفه الطويل نحوها. ورغم أنها لم تتحرك، إلا أنه أرجع رأسه إلى الوراء بحدة وكأنها صفعته.. لم يكن من الصعب تخيل أن تكون معاملته السيئة قد أثرت على رأسه أكثر من مرة بما يكفي ليتوقع الضرب من أي شخص كان.. وأسقمتها الفكرة.

قالت توبخه:

ـ هاي بلاكي.. أنت تعرفني أفضل من ذلك.

أطلق الجواد همهمة منخفضة، ثم تقدم إلى الأمام ومد رأسه من فوق الباب الخشبي السفلي ليداعب أطراف كنزتها بشفتيه.. فاستدارت إيريس لإبعاد أسنانه عن قضم الكنزة، ومررت يدها بلطف فوق أنفه المخملي الملمس.

ـ واهوو.. مهلاً على ثيابي.

ترك الكنزة، وضربها برأسه في أول إظهار للعاطفة التي نسيها منذ أمد بعيد كما خمنت، وتابعت إيريس الكلام معه وهي تداعب عنقه.. ولو أن هناك بعض التوتر في حركات الجواد الكبير، فإنه بدا مرتاحاً للمستها.

تغلبت العاطفة على سيطرتها على نفسها، وتبللت عيناها بالدموع، فدست ذراعيها حول عنق بلاكي واستندت إليه تهمس له:

ـ أوه.. يا إلهي.. أنا آسفة.

وكأنه أراد التعاطف معها فبدأ يتشمم كنزتها، فاستسلمت إيريس لحنين السنتين الماضيتين وما مر بها من ألم، حزينة لخسارتها أكثر مما سمحت لنفسها يوماً.

تحرك بلاكي، لكنه لم يبتعد عنها، فتركت عنقه ضاحكة إثر ارتفاع

معنوياتها.

ـ أنت لا تحب التأثر العاطفي كثيراً.. هه؟

هز رأسه وكأنه يوافق.

ـ ما رأيك بتمشيط جيد؟

اتجهت إيريس إلى غرفة المعدات لتحضر الفرشاة والمشط، وعادت إلى الحظيرة.. سمح لها بلاكي بوضع اللجام حول رأسه وربطه إلى حلقة المربط، ثم فتحت باب الحظيرة.

ترددت قليلاً.. ومع أنها كانت تنوي تمشيط الجواد داخل الحظيرة، إلا أنها كانت تعرف أن ليس من الحكمة الوثوق به طويلاً، إذ راودتها ذكرى ما كان عليه ذلك الصباح من توحش.. بلاكي يعرفها، وهذا واضح، كما هي واضحة المحبة التي أظهرها لها. لكن لن يلزم الكثير لإشعال فتيل الانفجار في جواد تعرض إلى التعذيب القاسي.

عندما دفعها بلاكي بلطف مستخدماً رأسه.. ترنحت بذلك كل قراراتها، ثم دخلت الحظيرة.

استولى عليها القلق.. وما إن أصبحت في الداخل، حتى تملكها الخوف الذي لم تحس به إلا في يومها الأول هنا، انقبض صدرها وشعرت بالألم. فجأة أخذ قلبها يخفق بسرعة كبيرة وتعرقت راحتا يديها، وأصبحت أنفاسها متسارعة.

وكأنما أدرك خوفها المفاجيء، فتحول بلاكي إلى أحد الجوانب رافعاً رأسه.. لم تعد إيريس تعي وجود الجواد، وأضحت لا تنوي سوى الخلاص من خوفها الذي أخذ يزداد مع كل ثانية تمر. استسلمت للهرب.. فتراجعت إلى الممر، لكنها أهملت إقفال باب الحظيرة.. ولم تلاحظ وهي تستند بضعف إلى الجدار أن الجواد خرج معها ووقف إلى جانبها متوتراً.. ثم دفعها بأنفه على كتفها ما جعلها تقفز مجفلة.

أرجع بلاكي رأسه إلى الوراء، وظهر بياض عينيه.. بدأ انشغال إيريس بذعرها يتراجع. لكن الانفعال جعلها تشد على الحبل الذي ربطت به رأس

الجواد، الأمر الذي زاد من توتره.. فتراجع بضع إنشات وارتفع عن الأرض قليلاً يشد الحبل، فأخذت ايريس تهدئه:

ـ واهوو.. اهدأ.

وأرخت الحبل لتتجنب حث الجواد على المقاومة. أنزل بلاكي قائمتيه الأماميتين إلى الأرض، ووقف بحذر.. اقتربت منه ببطء. ارتجف الجواد، لكنه تركها تقترب.. مدت إليه يدها، راحتها إلى فوق، فأخذ ينفخ فيها.

قالت بنعومة وهي تتلمس عنقه:

ـ آسفة.. أظن أن كلاً منا لم يكن سالماً.

اعترفت بذلك بينما كان الخوف يتملكها.. كانت تظن، أو أملت، أن تكون المشكلة التي واجهتها يوم وصلت إلى هنا أمراً عابراً.. ولقد فسرتها لنفسها، وأبعدتها عن تفكيرها.. كان مما يخزيها أن يشق الذعر طريقه إليها بقوة من جديد. بدا الجواد وكأنه متعاطف معها عندما مد أنفه مجدداً ليجد يدها، ويدسه في راحتها.

أعادته إيريس إلى الممر إلى جانب حظيرته، وانحنت تلتقط السترة الواقية لتبعدها مع سترتها والقبعة والشال إلى بالة تبن نظيفة.. وبعد ربط الحبل مجدداً إلى حلقة حديدية، أخذت الفرشاة وبدأت تنظف جلد بلاكي اللماع بحذر.

كان كوبر يقف في زاوية مظلمة من غرفة الأدوات، وأسنانه مشدودة على سيكاره الرفيع الطويل غير المشتعل. كان يتوقع مجيء إيريس إلى هنا هذه الليلة، فسبقها منذ أكثر من ساعة.. منذ دخولها الاسطبل أول مرة، كان شاهداً على كل ما يحصل، بما فيه تصرفها الغريب الآن.

كان من الممكن أن يواجهها في وقت قبل هذا حول ما اكتشفه عن صلتها بالجواد، لكنه كان يشك في أن تعطيه رداً مباشراً.. على أية حال، لم تعرض تقديم أية معلومات ذلك الصباح، حتى وهي تعرف أن تصرفها قد أثار شكوكه.

لفت اهتمام الجواد بها اهتمامه كذلك. كانت الطريقة التي سمح فيها

بلاكي أن يقاد إلى الحظيرة شيئاً لا يستطيع التغاضي عنه، ولو أن جارد لم ينتبه له.. تبع هذا ذكرى معتمة داعبت مؤخرة تفكيره إلى أن عاد إلى المنزل وفتش في أوراق الجواد، وما قرأه فيها كان اسم أ. برايبون المالك الأصلي لبلاكي، وأصبح متأكداً أنها على علاقة بالموضوع بطريقة أو بأخرى.

كانت رؤيته لها الليلة مع الجواد، وسماعه ما قالته، أفضل بكثير من محاولة انتزاع الردود منها.. ومن الآن حتى تدخل الجواد ثانية إلى الحظيرة حيث يقضي الليل، سيكون قد عرف كل شيء.

نظر إلى إيريس تنهي تمشيط الجواد، ثم تتفحص حوافره بدقة وتنظفها.. هذه المرأة إما أن تكون متهورة أو غبية.. إنها تقوم بأشياء كان يضطر هو إلى شد وثاقه ليقوم بها، وكان بادياً أنها لا تعطي الأمر أي اهتمام كما لو أنها تنظف فرساً مطيعة.

أبقاه توتر غريب متنبهاً لمزاج الجواد.. لا ينكر أنه أعجب بطريقة تعامل إيريس معه بالتدريج، إلا أن التعامل مع بلاكي كالسير عبر حقل ألغام، إما أن يكون الرباط بين الاثنين قوياً، أو أن إيريس قد أعمتها العاطفة ولم تعد تتصرف بتعقل.

استرخى بعض من توتره حين استقامت إيريس أخيراً وربتت على مؤخرة الجواد بحزم. راقبها كوبر تتفحصه مرة أخرى.. كان الجواد بحالة ممتازة، باستثناء ندوب الجروح.. أخبرته تعابير وجهها أنها تدرك ذلك، تقدمت إلى رأس الجواد وأمسكت بلجامه قبل أن تضغط خدها إلى جانب أنفه الكبير، وتغمض عينيها.. وقف الجواد دون حراك. بدا واضحاً أنه كان يتمتع بملاطفة يديها ورنة صوتها الرقيق وهي تدمدم بكلمات لا معنى لها.

عض كوبر سيكاره.. كانت إيريس قد أفلتت شعرها الأسود تاركة هالة الخصل المجعدة تتموج دونما اكتراث حول رأسها وكتفيها.. كانت يداها الصغيرتان كفؤتين وواثقتين مع الجواد، لكن المحبة الواضحة في الطريقة التي تلامس فيها الحيوان هي التي أثرت على كوبر.

كانت ترتدي كنزة كحلية تلتصق بحنان على صدرها وصولاً إلى خصرها النحيل، وبدا أن اللون كان يزيد من كهربة النور الحي المنبعث من عينيها، ويزيد من نعومة اللون الوردي على خديها.. ومع أن بنطلونها الجينز لم يكن ضيقاً، إلا أن كوبر لم يستطع إلا أن يلاحظ تناسق القماش مع ساقيها الطويلتين الرشيقتين.

إضافة إلى جمالها الجسدي، كان لها ميزة التأثير عليه.. جعله النظر إليها وهي تحتضن الجواد وتبكي، يشعر بالخسة لتجسسه عليها.. وأحس بارتياح غريب حين توقفت، ثم حدث أمر غريب حين دخلت الحظيرة، ولم يكن هناك مجال للغلط في نظرة الذعر التي انتابتها، ولم يكن صعباً الفهم أن لوجودها في السجن علاقة بالأمر. لكن بدلاً من النفور من الذكرى أحس بنوع غريب من الإشفاق عليها.

من حسن الحظ أنها ستذهب قريباً، فلسوف تبتعد العاصفة مع ظهر الغد وسينتهي الأمر. لكن الإحباط المفاجيء الذي أحس به للفكرة طعن صدره كالسكين.. اللعنة على كل شيء.. من أين لها هذه القدرة على التأثير فيه؟

أحس في النهاية أن الشتاء قد طال كثيراً.. وأنه كان يحس بالتململ والضجر حين وصلت.

من سخرية القدر أن تكون أول امرأة مثيرة حقاً للاهتمام تصل إليه منذ زمن بعيد، لها ماض خطر جداً.

مع ذلك، لقد رأى بنفسه أنها لا تشكل خطورة على المزرعة أو على ابنته.. حتى ولو كانت معتادة على مواجهته كما لا يفعل أي رجل يعمل لديه.. أو يتسامح به.

برتسوم.. حتى الطريقة التي تتلفظ فيها باسمه حين تغضب هي بمثابة تحد له. كان عليه اكتشاف أن هذه المرأة تثير شيئاً متوحشاً فيه..

بدت ملامح العجرفة على وجهه وهو يفكر ما الذي يحتاج إليه ليخضعها.. قد يلقى بعض النجاح، لكنه يعرف بالغريزة أن إيريس برايبون

لن تكون امرأة تخضع طوعاً أمام رجل ما.

بشكل غريب، كانت هذه المعرفة هي التي تجذبه إليها أكثر والتي سمحت لها أن تتمسك بما في داخله وكأنها قبضة حديدية ملفوفة بالحرير.. اللعنة! سيكون من الصعب إبعادها.

أخيراً قطع كوبر طرف سيكاره بأسنانه ومد يده بتوتر لينتزع القطعة من فمه قبل أن يرمي السيكار بعيداً. لقد تخلى عن التدخين منذ سنوات، لكن حين وجد علبة سيكار في أحد أدراجه، أشعل واحداً بشكل آلي كما كان يفعل أثناء إدمانه. ورد ذلك إلى تفكيره بإيريس.. في النهاية حزم الرأي واتخذ القرار.. قد يكون من الصعب إبعاد إيريس برايبون.. لكن بكل تأكيد، هذا ما يجب عليه فعله.

انتهى وداعها للجواد أخيراً. فكت إيريس الحبل لتقوده إلى داخل الحظيرة، نزعت عنه اللجام وتراجعت لتحثه على الدخول قبل أن تغلق الباب.

تصاعد صوت وقع حذاء وخربشة عود ثقاب على الخشب الخشن خلفها. استدارت بخفة نحو الرجل الطويل المتجهم الوجه الذي أخذ يراقبها بعينين باردتين.. ولامس الشعلة بطرف سيكاره الرفيع الطويل. نفض يده ليطفىء عود الثقاب، ثم رمى العود الميت إلى الأرض المغبرة.

بدت أسنانه بيضاء لامعة وهو يعض السيكار.. وراح يتفحص عن كثب اللون الأزرق السائل في عينيها بتوتر تنم عنه عيناه السوداوان. ثم ارتسمت على فمه ابتسامة متجهمة.

ـ هل نلت شرف اللقاء بالآنسة أ. برايبون؟

إذن لقد قرأ أوراق بلاكي!

ـ ولمَ تسأل برتسوم؟ لا شك أنك رأيت الكثير هنا الليلة.

ازداد اشتعال النار السوداء في عينيه.

ـ وهذا ما حصل.. أتهتمين بأن توفري لي بعض التفاصيل الناقصة؟

استدارت عنه لتأخذ أغراضها:

ـ كلانا يعرف أنني سأضيع أنفاسي دون جدوى.

ـ ولماذا؟

أطلقت ضحكة لا مرح فيها:

ـ لقد حكمت عليّ بوجهة نظرك عندما عرفت أنني سجينة سابقة برتسوم. بالنسبة إليك، ماضيّ لا يؤهلني لأحظى بعمل لديك، وكذلك إمكانية أن أعطيك معلومات موثوقة.

ارتدت سترتها بحركات سريعة متوترة:

ـ أنا كنت المالكة الأصلية للجواد الذي تملكه أنت الآن. وهذه نهاية القصة.

وكأنه أحس أنه على وشك قضم السيكار بأسنانه مجدداً، فمد يده ينتزعه وينفض عنه الرماد:

ـ لو ظننت أن هذه نهاية القصة، لكنت تركتها هكذا.

اشتد ضغط التوتر في نفس إيريس، وهي تراقبه يطحن رماد السيكار بقدمه.

ـ ماذا تريد مني برتسوم؟ أو ربما يجب أن أسأل ماذا تظن أنني سأفعل؟ مجرد قبولي بعمل في مزرعة سيعرض شرفي للخطر، لأنني سأكون أول شخص يحققون معه لو فقد رأس ماشية واحد.. فهل تظن حقاً أنني غبية بما يكفي لأخرق القانون، وهذا يعني خمس سنوات وراء القضبان؟

لان تعبير وجه كوبر الخشن، قليلاً، لكن نظرته بقيت حادة.

ـ إذن لماذا جئت للعمل في مزرعة وخاطرت؟

أشارت بيدها حولها:

ـ لو أنك.. خسرت كل هذا.. فأي عمل أنت مؤهل له؟

لم ينبت ببنت شفة، فأطبق عليها إحساس بظلم القدر.. هذا الرجل قاس لا يلين.

قالت بصوت أجش:

ـ أنا لا أشكل تهديداً لك برتسوم.

وحدقت بالأرض وقد أحرجها كشف هذا القدر من المعلومات.

أمسك ذراعها ليوقفها.. ولما حاولت التخلص من يده شد بقوة أكثر.. فاستدارت إليه غاضبة:

ـ ماذا تريد الآن؟

نظر إلى وجهها الراني إليه، يغريه الإعجاب بإرادتها الصلبة. إنها تشكل خطراً عليه دون شك، لكن ليس بالطريقة التي تفكر بها.. أرسلت عيناها شرارات زرقاء، وازدادت حمرة خديها غضباً، لكن وضعية فمها العنيدة هي التي جذبت نظره. كل شيء في هذه المرأة يتحداه، وكل شيء فيه يدفعه لقبول التحدي.

أحست إيريس بالتغيير فيه، جذبها إليه فجأة فأفلتت السترة الواقية والقبعة.. جعلها الذهول بطيئة الرد للحظات..

انتشرت الأحاسيس في داخلها كالبرق، وارتفعت يد كوبر لتنتشر أصابعه في شعرها. لم تعد قادرة على منع يديها من الارتفاع إلى صدره ثم الالتفاف حول عنقه.. أحست بأن ركبتيها تكادان تخوناها، وترسخت معرفتها أنها وكوبر صنوان بطريقة بعيدة عن الأمور الجسدية.

شد ذراعيه حولها كأنه لم يعد يتحمل لحظة أخرى.. مهما كان يقصد أن يفعل حين بدأ العناق، فقد تسبب بإطلاق سراح شيء متوحش في كليهما.. ومع عودة التعقل، خطر لها أن هذا قد يصبح نقطة سوداء ضدها في نظر كوبر.

تراجع كوبر عنها ببطء. تقنعت إيريس عمداً بالبرودة، وكان من الممكن أن تبتعد عنه لولا أنه كان يمسك خصرها.

دفعت الكبرياء عينيها إلى فوق لتلتقي بعينيه المضطربتين، فتفرس بوجهها المحمر، ثم ترك نظرته الوقحة تجول على جسدها قبل أن يرفعها مجدداً إلى وجهها. وعندما تواجهت عيونهما أخيراً، اشتعل شيء في عينيه، قبل أن يخفيه عنها بسرعة.. استرخت قبضته على خصرها، وهبطت يداه بعيداً.

كانت الإنشات القليلة التي تفصلهما مشحونة بصمت مكهرب لم يكسره أي منهما. كانا كمقاتلين أنهما الجولة الأولى، ويحاولان تقدير كمية الضرر التي وقعت على الخصم وهما يستعيدان رباطة جأشهما إثر المعركة. لم تفصح نظرة كوبر عن شيء، وتمنت إيريس أن تكون مثله.. وأحست فجأة بحاجتها إلى الهرب.

لم يلزمها أكثر من إدراكها ذلك، لتسرع وتأخذ أشياءها التي وقعت منها، ثم تتوجه نحو الباب دون أن تخفف من سرعتها. لفت الشال حول عنقها، ودست القبعة مع ذراعيها في السترة الواقية.. ارتجفت يداها وهي تفتح الباب الكبير أثناء خروجها.

ولم يلحق كوبر بها إلى المنزل قبل وقت طويل.

***

٦ ـ كلمة قبل الرحيل

أيقظ السكون إيريس قبل الساعة الرابعة من الصباح. أخيراً توقفت الريح عن الهبوب.. وانتهت العاصفة، وسيرغب كوبر في مغادرتها في أسرع وقت ممكن.. هي متلهفة لإنهاء الأمر كله.. ارتدت ثيابها وحضرت أغراضها، ثم رتبت السرير بحذر، وراحت تزيل أي أثر لوجودها.

خطت بهدوء نحو الردهة المظلمة وهي تحمل حقائبها، وشقت طريقها عبر المنزل الصامت.. استقبلتها رائحة القهوة تغلي حين وصلت المطبخ، لا بد أن اليانور قد برمجت توقيت غلاية القهوة الكهربائية الليلة السابقة لجعلها تعمل في ذلك الوقت إذ لا أثر لوجودها.

حملت أغراضها إلى الشرفة المسقوفة، ووضعتها بعيداً عن الطريق.

لم تكن متشوقة لمواجهة كوبر، خاصة بعد ما حدث بينهما في الليلة السابقة.. أن تسمح له بعناقها، إضافة إلى الترحيب بهذا العناق والتشوق للمزيد، كان مخاطرة كبيرة، فقد أوضح رأيه تماماً بشخصيتها وبقسوة، لكن هذا لم يعن شيئاً ما إن تلامسا.

أعادتها ذكرى تجاوبها معه إلى داخل المطبخ. أخذت كوباً من الخزانة ثم وقفت أمام إبريق القهوة إلى أن نضجت القهوة فيه، لكن توترها لم يلن مع السائل الساخن.. يجب أن تفعل شيئاً لتخفيف هذا التوتر، لكن الشيء الوحيد الذي فكرت به هو جرف الثلج.

أجفلها صوت من جهة غرف النوم في المنزل. إذا أرادت تجنب أن تعلق في المطبخ، يجب أن تنطلق الآن.

تركت الكوب في مكانه على الطاولة، واتجهت إلى الشرفة المسقوفة لترتدي حذائها الثقيل. وفي غضون لحظات كانت قد ارتدت معطفها وقفازها وأخذت رفش الثلج، وخطت إلى الخارج.

تحركت بسرعة للمحافظة على حرارتها، وأبعدت الثلج عن السلم. نظفت الممر من كل شيء ما خلا طبقة خفيفة من الثلج لإبقاء الجليد تحتها مغطى، وحين وصلت الطريق الداخلية استدارت لتنظف الممر أمام المنزل.

الجهد الذي بذلته في عتمة الفجر لم يؤثر كثيراً على تململها. أقلقها عدم وجود مكان تذهب إليه وحيازتها على مال محدود قد لا يمكنها من الوصول إلى أي مكان، حاولت التركيز على شيء آخر.. ثم تأوهت حين عادت أفكارها إلى كوبر ومواجهتهما في الاسطبل.

أخيراً، أنهت تنظيف الممر الأمامي. كان من الممكن أن تجد عذراً يبقيها في الخارج لتتجنب مواجهة كوبر، لكنها أخرت دخولها طويلاً بما يكفي.

عادت باتجاه الشرفة الخلفية مستسلمة لما ينتظرها. إذا كان هناك شيء يمكنها الاعتماد عليه مع كوبر، هو أنه لن يدعوها للبقاء.. إنه على استعداد لإخراجها من المزرعة في أسرع وقت.

وهذا أمر لا بأس به بالنسبة لها.. حاولت إقناع نفسها بذلك وهي تخطو إلى الشرفة الخلفية وتستخدم ممسحة الأقدام لتزيل ما علق في حذائها الثقيل من ثلج.. كلما أسرعت في الانطلاق، كلما تمكنت من إيجاد مكان تأوي إليه بسرعة أكبر، لكن التململ الذي كان مسيطراً عليها تحول فجأة إلى عقد مشدود من الخوف.

التهمت آخر لقمة من البيض واللحم الذي وضعته اليانور أمامها. أجبرتها حاجتها إلى القوة لمجابهة المجهول على تناول طعام الفطور برغم معدتها المتصلبة.

لم يقل كوبر لها كلمة، ولم تقل له شيئاً كذلك. لم تشعر بارتياح لإدراكها أن اليانور لاحظت التوتر الثقيل الوطأة الذي حل منذ دخلت إيريس المطبخ.. إذ لم يكن هناك أي حديث لطيف من الذي كان يرافق

الفطور عادة.

صبت إيريس المزيد من القهوة، وأخذت رشفة كبيرة. عندها، تركت اليانور المطبخ. مال كوبر إلى الوراء في كرسيه، ورمى ذراعه على ظهر الكرسي إلى جانبه.. وبالرغم من وضعيته العادية، أحست إيريس بعينيه السوداوين تراقبانها.

ـ كم معك من مال؟

السؤال أجفلها: ماذا؟

ـ سألت كم معك من مال.

تصلب ظهرها خجلاً وسخطاً، ليس من حقه أن يسألها هذا السؤال، ولا أن يحصل على الرد.. ثم، إنه الشخص الأخير الذي يمكن أن تخبره عما تحويه حقائبها الثلاثة، وعن الدولارات الخمسين التي لا تملك غيرها في العالم.

ـ لماذا تسأل؟ أتعتقد أنني لم أعمل بما يكفي طعامي ومنامي؟ أم أن أحداً فقد بعض ماله؟

بدت ملامح كوبر أكثر قساوة. أنزل ذراعه عن ظهر الكرسي، ومال إلى الأمام ليضع ساعديه على الطاولة:

ـ الكبرياء لا تؤمن سقفاً فوق رأسك ولا طعاماً في معدتك.

اشتد تصلب إيريس:

ـ لا أذكر أن أحداً كلفك حمل هذه المسؤولية برتسوم.

لكن نظرته الصارمة لم تتحول:

ـ ماذا تدفع إدارة السجون من مال للذين تطلق سراحهم هذه الأيام؟

كان المبلغ خمسين دولاراً، وقليل من الثياب الجديدة.

وقفت على قدميها بسرعة وأرسلت كرسيها لتتهاوى وراءها ونكاد تقع:

ـ اللعنة عليك برتسوم.. ألن تكف عن ذلك أبداً؟

حاولت يائسة السيطرة على غضبها. بدأت الإمساك بكوبها، ثم

لاحظت أنها سكبت بعض القهوة حين قفزت واقفة.. بعد التقاط السائل الأسود بمنديل الطعام، تحركت إلى المغسلة لتأخذ منشفة الصحون.. وأخذ كوبر يراقبها بثبات زاد من توترها.

أعادت منشفة الصحون إلى المغسلة، ونظفتها تحت الماء. ثم وقفت وأدارت ظهرها إليه وأمسكت حافة رف المغسلة بأصابعها.

ـ متى سنغادر؟

سمعت جرجرة كرسي فوق الأرض وعرفت أنه وقف:

ـ لدينا عمل يجب أن نسويه أولاً.

جعلها الإحباط تستدير إليه:

ـ إذن.. كم تعتقد أنني مدينة لك؟

تجعد جبينه عندما لاحظ التحدي في صوتها:

ـ لقد جئت إلى هنا تتوقعين تجربة أسبوعين على الأقل مع الراتب ولم أعطك العمل.. لذا، أعتقد أنني مدين لك بأجر أسبوعين للمصاعب التي نعرف كلانا أنك ستتحملينها.

أصيبت إيريس بالصاعقة أمام العرض. إذن هذا ما كان يريد الوصول إليه.. وتفجر الإحباط الذي كانت تعانيه طوال الصباح في غضب متوهج:

ـ جئت هنا لأجل العمل برتسوم.. لا لمد يدي تسولاً.

ـ هذا ليس تسولاً، إنه راتب يعوض عن الوعد بتجربة مدة أسبوعين.

التوت شفتاها سخرية:

ـ تبدو لي أنها دفعة لإراحة ضميرك المذنب، ضمير تأخر في التحرك ثلاثة أيام.

خضب احمرار كليل قسمات وجهه:

ـ خذي المال أو اتركيه إيريس. لن تجدي صاحب مزرعة، يقبل بتوظيف سارقة مواش محكوم عليها.. ليس مع ما يجري هنا منذ السنة الماضية.. خمسين دولاراً لن تمكنك أكثر من شراء تذكرة باص إلى حدود المقاطعة، وأقل من ليلتين في موتيل قذر.. وإذا كنت تتوقعين تناول الطعام

www.elromancia.com

فسينفد مالك بسرعة أكبر.

كبتت إيريس ارتجافها للكلمات الصريحة التي عبّرت عن أسوأ مخاوفها.. وكأنما ليوصل الفكرة جيداً، أضاف:

ـ كما قلت.. الكبرياء لن تحصل لك على شيء.

وقفت متعنتة تتحدى مخاوفها السرية التي يكشف عنها.. قد لا توصلها الدولارات الخمسون إلى مكان بعيد.. لكن إذا كان هذا كل ما تملك.. إضافة إلى احترامها لذاتها.. يجب أن يكون ذلك كافياً.

ـ احتفظ بمال إراحة الضمير لنفسك برتسوم.. ما لم تجبر نفسك على إعطائي عملاً يساوي المال لن أستطيع أخذ شيء منك.

ـ افعلي ما ترينه مناسباً.

استدار نحو الشرفة، ولحقت به إيريس.. ارتديا حذائيهما الثقيلين، وثيابهما الخارجية، وصمت مطبق يخيم على المكان. بدأت تلملم حقائبها عندما رمى كوبر لها السترة الواقية.

التقطتها كردة فعل، ثم رمتها له مجدداً:

ـ إنها ليست لي.

ـ إنها لك وأنت هنا. وهذه السترة الصيفية اللعينة لا تكفي لرحلة إيصال العلف للماشية.

يبدو أن ارتباكها قد ظهر على ملامحها، لأنه أضاف:

ـ الطريق لن تجلو تماماً قبل منتصف النهار.. ولدي ماشية أطعمها، وعجول ولدت في العاصفة أنقذها.

رمى إليها بالسترة، فالتقطتها مجدداً:

ـ إذا كنت تفضلين البقاء هنا، علقيها على المشبك.

وكأنما لا يهمه ما قد تفعله، فتح الباب وخرج.

لزمها لحظات لتستعيد وعيها.. لأنها تريد المغادرة، تريد أن تنهي كل شيء.. لكن، إذا كان هناك تأخير، فستجن لو جلست في المنزل لوحدها. وخرج إحباطها متفجراً وهي ترتدي السترة:

ـ اللعنة على كل شيء.

كانت تعتقد أن أول اهتمامات كوبر سيكون إخراجها من المزرعة.. لكن يبدو أنها بالغت في تقدير مدى لهفته لذلك.. وبالطبع، تأتي المواشي أولاً بعد عاصفة ثلجية كالتي مرت..

لم تلحق بكوبر إلى أن وصلت الحظيرة المستديرة المسقوفة بألواح الحديد، البعيدة كثيراً عن بقية أبنية المزرعة.. كان هناك جرافتان ضخمتان وعربات مجرورة لنقل التبن، تقف ممتلئة. وهي تقترب، انطلق أول التركتورين واتجه نحو البوابة العريضة التي تقود إلى الخلاء. بينما كانت تقترب منه.

نظرت إيريس حولها بحثاً عن كوبر، ثم لاحظت باب التراكتور الآخر ينفتح.. كانت الصيحة التي سمعتها أقوى من صوت هدير المحرك، لكوبر دون شك.. وخاضت في الثلج لتصل إلى التراكتور.

نظر كوبر إليها، وعلق بصره لوقت قصير بثنايا جسدها، ثم التقت عيناه بعينيها.. شدت إيريس على أسنانها تقاوم الدفء المتسلل إلى وجنتيها.. زاد وجودها قريبة منه هكذا، وملاحظته الواضحة لمزاياها الأنثوية، من حدة الإحساس المثير بقربه منها.

ظهرت في عينيه لمحة مرح نادرة، وتحرك قليلاً. كادت إيريس تقفز من سقف القمرة حين أطبقت يده بالقفاز بثبات على ساقها وضغط عليها برقة.

قال: استرخي.

ثم انتزع يده واستدار عنها.

اندفع التراكتور بسرعة قبل أن يكبحه ثقل العربة المليئة بالتبن.

ـ أتسمحين بإرضاء فضولي حول أمرين؟

السؤال أجفلها، ونظرت إليه:

ـ هذا يتوقف على ما تريد معرفته.

ـ لقد ألمحت أن عمل المزرعة هو كل ما تعرفينه.. هل هذا صحيح؟

ـ هذا صحيح.

ـ هل كان أبواك مزارعين؟ ألا يزالان هكذا؟ هل هما على قيد الحياة؟

ـ لا.

ردها القاطع جعله ينظر إليها مجدداً، ويكمل:

ـ هل ماتا قبل متاعبك مع القانون أم بعدها؟

كان توترها يزداد حدة مع كل سؤال يطرحه:

ـ ربما كان يجب أن أحدد لك ثلاثة أسئلة فقط برتسوم.. أنت مزعج كامرأة عجوز.

ـ وأنت مطبقة الفم كملزمة صدئة.

دهشت إيريس للإحباط في صوته، وفكرت بنفسها للحظات ثم أدركت أن لا جدوى من رفض إرضاء بعض من فضوله.. وليس هناك الكثير في تاريخ عائلتها يمكنه استخدامه ضدها.. حتى ولو اختار هذا، فلن تبقى طويلاً.

ـ ماتت أمي وأنا صغيرة.. ورباني أبي لأتولى إدارة المزرعة يوماً، وحين مات منذ خمس سنوات، توليت إدارتها.. لكن، ما لم تأخذه الضرائب أجهزت عليه أسعار السوق ورسوم الدفاع.. وما أن وصلت الأمور إلى هذه النقطة، حتى وجدت أنني لم أعد أنتج ما يكفي للاحتفاظ بها حتى ولو استطعت إدارتها من السجن.. هل يكفي هذا أم تريد المزيد؟

كان الصوت الذي انطلق من حنجرة كوبر يمكن أن يعني أي شيء، لكنها عرفت من صمته واستغراقه في التطلع إلى الخارج، أنه أنهى تساؤله.

كانت السماء قد بدأت ترسل النور، والنجوم تخبو مع تصاعد الشمس بثبات نحو الأفق.. أخيراً وصلا إلى قسم من قطيع الأبقار. خفف كوبر من سرعة التراكتور ليتوقف على بعد أمتار من أول بقرة..

نزلت إيريس من التراكتور قبل نزول كوبر حيث أوقفه على مرتفع عريض. سارت نحو مؤخرة المقطورة وصعدت إليها.. عندما وصلت إلى أعلى الشحنة، أخرجت سكين جيب، ثم استخدمت السكين لتقطع الرباط، ورمت كمية من التبن بعيداً عن العربة قدر المستطاع.. وفعل كوبر مثلها، فقد أخذا يرميان التبن نحو الأبقار التي بدأت تتجه نحوهما.

كانت إيريس مسرورة جداً للنزول والعودة إلى قمرة القيادة في التراكتور، الدفء النسبي في الداخل كان كالترياق.. هذه المرة لم تبعد نفسها عن التلامس مع كوبر الذي أخرج الإبريق الحافظ للحرارة وصب لها فنجان قهوة قوية، أخذتها بترحاب.

لم يتكلم مثلما لم تتكلم وهو يحرك التراكتور.. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء الآن.. وأخذا معاً يجيلان النظر في الأرض الخلابة المغطاة بالثوب الأبيض حولهما، بحثاً عن قسم آخر من القطيع.. بعد ثلاث ساعات، كانا قد أفرغا محتويات العربة، وعادا إلى السقيفة لأخذ حمل آخر.

بعد إرجاعه المقطورة إلى سقيفة التبن ونزولهما من التراكتور، سار كوبر أمام إيريس نحو السلم المثبت إلى عمود خشبي طويل يصل إلى منتصف المخزن من الجهتين.. أخذ كلابين للتبن من تعليقة في الجدار وأعطاهما لها قبل أن يصعد إلى الطبقة العليا.

أنعشت رائحة التبن الحلوة إيريس حنيناً وهي تنظر حولها في المخزن الكبير.. وقفت للحظات تتلذذ بالرائحة وهي تخلع قفازيها، ثم أدركت فجأة أنها توشك على البكاء.. أعادت بضع كلمات قاسية لنفسها عواطفها إلى السيطرة، وبدأت العمل فراحت تضرب حزمة التبن بالكلابين وترميها في العربة.

بينما كانت تقف بعيداً، كان كوبر يرمي الرزم من الأعلى لتصل مقدمة المقطورة.. وعملت إيريس بسرعة على ترتيب الرزم في صفوف منتظمة تشكل أساساً متيناً للتحميل فوقها.

كان كوبر يراقب تقدم عملها وهو يرمي بالتبن، وكان أكثر من متأثر بقدرتها على متابعته. كانت الطريقة المتصلبة الكفؤة التي كانت تحول فيها الرزم الثقيلة إلى صفوف جامدة، تتلاعب بإحساسه العادل.. لديه رجال يعملون له لا يتحركون بنصف سرعة ومستوى كفاءتها.

أرسل عدة رزم أخرى إلى الأسفل، ثم توقف للحظات يراقبها ترفع رزمة إثر رزمة لتضعها في مكانها المناسب.. ذكرته الدقة في الترتيب،

بالفخر المتكبر الذي تبديه في أي عمل قامت به في المدة القصيرة التي أمضتها هنا، مهما كانت المهمة وضيعة أو صعبة. وصدمه فجأة أنها ستكون مفيدة لكل من تعمل وهذا أمر مهم لكل مزارع.

لولا سجلها الإجرامي..

أجفلته الذكرى. اجتاحته موجة من النكران للحظة، وهو يراقبها تعمل. هاتان العينان الزرقاوان الصافيتان، والخدان الورديان والوجه الرائع، لا يمكن أن تتناسب مع صورة سيدة مجرمة.. ثم هناك ضعفها.. إن ما فعلته لتصل إلى السجن كلفها خسارة كل شيء حسب قولها.

إذا خسرت كل هذا.. فأي نوع من العمل ستكون مؤهلاً له؟

هذا ما سألته في الليلة الماضية.

تلقى السؤال مع كثير من الألم والإحباط، لكنه قسّى قلبه نحوها.. وركز بدلاً من ذلك على الإعجاب القوي الذي أحس به نحوها بوصفها امرأة.

وكان تفكيره يدفعه ليتذكر ما حصل بينهما ليلة أمس وما هي إلا لحظات حتى كان غارقاً في ذكرياته.. ضاع مؤقتاً وهو يتذكر الحلاوة البرّية لعناقها، زوال صدمتها، وارتفاع يديها إلى صدره ثم التفافهما حول عنقه، ساعة لنفسها بمعاملته بالمثل.

من الجيد أنها سترحل بعد بضع ساعات.. هذا ما راح يفكر فيه بينما كانت ترمي رزمة أخرى فوق الحمل. فالبعيد عن العين بعيد عن القلب، ولسوف ينسى أمرها قبل حلول الربيع، ويتساءل عمّا دهاه. لكن، حتى رحيلها فعلاً...

أحس كوبر بالذنب كأنه وحش ينبعث إلى الحياة ويهدده، لا يريد أن يعترف أنها تستحق الحصول على التجربة لأسبوعين، أي ما كانت تسعى إليه عندما أتت أول الأمر. وكره أن تعمل جاهدة هكذا في هذا البرد المرير وهي تعرف أنه لن يوظفها. كان تصميمه على الخلاص منها يضعف بشكل خطير.. واعتراضه على سجلها الإجرامي لم يعد يبدو قوياً بما يكفي لمساندة

قراره.

لم يدرك أنه توقف لعدة لحظات يراقبها تعمل إلى أن أنهت ترتيب الرزم ورفعت رأسها نحوه تدفع بالمزيد.

استقامت بارتباك.. أجفلتها النظرة النارية في عينيه.. فجأة أخمد كوبر نظرته وأشاح ببصره عنها.. وما هي إلا لحظات، حتى أخذ يرمي الرزم مجدداً بسرعة جعلتها تجهد لتتابعه.

امتلأت المقطورة بسرعة قياسية، ومع نزول إيريس بحذر عن الحمل لتنضم إلى كوبر على الأرض، أحست بشيء من الإعجاب يتنابها. كان يراقبها عفوياً، لكن تعبير وجهه المغلق، حذرها أنه يحاول إبعاد نفسه عنها.

أدركت أنه يجب عليه فعل ذلك.. فمهما عملا جيداً معاً ذلك الصباح، فلا يزال يريد منها أن ترحل.. لكنه أدهشها حين سار أمامها إلى التراكتور بدلاً من أن يقول لها إن الوقت قد حان لتحضر حقائبها.. لحقت به، واستقرت في قمرة القيادة بينما كان يدير المحرك..

حاولت إيريس أن لا تقرأ شيئاً يحمل الأمل في الطريقة السهلة التي عملا فيها معاً، الطقس بارد، ولديه مواش جائعة يطعمها.. ولا سبب آخر يؤخر رحيلها.

وقفت إيريس في طريق كوبر تمنعه من أن يخطو خطوة أخرى نحو الحظيرة:

ـ ماذا تقصد أنك لن تستطيع إرسال أحد يوصلني إلى البلدة؟

كانت فترتا الصباح والظهيرة قد ابتعدتا.. والساعة تقارب الثانية بعد الظهر. أخذت تتململ، ولم يجد كوبر وقتاً يوصلها إلى ردهورس.

أجابها بخشونة:

ـ ما قلته تماماً، فنحن منشغلون جداً.

بدأ يسير مبتعداً عنها، لكنها أمسكت بذراعه:

ـ أنا مضطرة إلى الوصول إلى أبعد مكان ممكن قبل حلول الليل.. وأظنك تحاول جعل هذا صعباً عليّ.

لم يخف ظل قبعته لمعان عينيه.. فجأة لم تعد تستطيع تحمل المزيد من السخط الذي بدا مصمماً على إثارته في نفسها..

مرت إيريس به غاضبة أثناء توجهها إلى المنزل، سوف توقف سيارة توصلها عن الطريق الرئيسية لو اضطرت.. برغم معرفتها مخاطر هذه الطريقة في التنقل، إلا أنها كانت أكثر غضباً من أن تهتم.

- إيريس!

لكنها لم تبطىء من سيرها لصيحته. فكرر غاضباً:

- إيريس!

لم تظهر أي دليل على أنها سمعته.. فتحت باب الشرفة ثم دخلت لتصل إلى حقائبها.

لكن حقائبها لم تكن هناك.. الأمر الذي أدهشها كثيراً.. توقفت يدها في منتصف الطريق نزولاً إلى حيث كانت الحقائب.. نظرت على طول الشرفة بسرعة فاكتشفت أن الحقائب لم تعد هناك.

استقامت ثم أغلقت الباب في الوقت الذي سمعت فيه وقع حذاء كوبر الثقيل في الممر.

نادت وهي تخلع سترتها الواقية وتنفض حذائها: اليانور!

جاءت اليانور مسرعة من غرفة الجلوس:

- ما الأمر إيريس؟

- أين أغراضي؟

قطبت المرأة العجوز حاجبيها:

- لقد أمرني الرئيس أن أعيدها إلى غرفتك.

اتجهت إيريس إلى غرفة النوم، ودخل كوبر إلى المطبخ. كانت مصممة على استعادة حقائبها والمغادرة، مهما كان نوع الشجار الذي سيخلقه أمام اليانور.

دخلت غرفة الضيوف التي تنام فيها واتجهت إلى أسفل السرير لتمسك حقائبها حين دخل كوبر مسرعاً عبر الباب.

- أنت عنيدة كالجحيم إيريس برايبون!

مد يده ليغلق الباب المفتوح.. فتراجعت إيريس مرتبكة، لم يكن قد خلع حذاءه، فتساقطت قطع ناعمة من الثلج أثناء تقدمه نحوها.. عندها فقط أدركت أن المواجهة الحقيقية لم تكن بين كوبر وبينها بقدر ما هي بينه وبين نفسه. مع ذلك لم تكن ثقتها كبيرة بقدرتها على فهم هذا الرجل ومعرفة دوافعه الحقيقية. خاصة في هذه اللحظات بالذات.

قالت متحدية:

- أنا عنيدة؟ أنت لا تهتم..

أمسك ذراعها، جذبها نحوه حتى باتا متواجهين. كان التعب قد زاد من عمق الخطوط حول عينيه وأطال الخطوط حول فمه.

- لقد حصلت على تجربة الأسبوعين.. هل فهمت ذلك؟

جمدت وهي تحاول استيعاب ما سمعت، كان غاضباً ومع ذلك أعطاها تجربة مدة أسبوعين.

- لماذا؟

تركها إثر السؤال فجأة. ونظر إليها بقسوة، ثم استدار إلى الباب يفتحه، لكنها كررت السؤال.

كانت النظرة التي رماها بها من فوق كتفه أقل قسوة بقليل. يبدو أنه تخلص من بعض الغضب حينها:

- أتريدين العمل أم لا؟

هزت رأسها: أريده.

- إذن، لا تعطيني سبباً للندم إيريس.. فقد بدأت الوساوس تنتابني.

خرج من الباب وابتعد، قبل أن تستعيد وعيها تماماً.

***

www.elromancia.com

٧ ـ طعنة في القلب

كانت إيريس سعيدة كطفل في عيد ميلاده. كانت قد نسيت كيف هو الإحساس بالترقب للاستيقاظ في الصباح.. والأفضل من ذلك بكثير، إن المهمات التي أوكلها لها كوبر، تركزت على الجياد، خاصة بلاكي، وأعطاها الحرية الكاملة في التصرف مع الجواد، وسار كل شيء على ما يرام حتى حلول بعد ظهر متأخر ليوم من أواخر ذلك الأسبوع.

كان الطقس قد صار ألطف في الأيام القليلة التي مرت.. وبما أن الكثير من الثلج قد ذاب، فإن إيريس قد أسرجت بلاكي وقادته إلى مرعى صغير غربي المنزل، وبرغم كونه حاول مقاومتها، إلا أنه كان متشوقاً للركض كثيراً بحيث نسي أن يرميها عن ظهره. ولزمها كل مهارتها لكبح الحيوان المتمرد، لكن الوحل تحت الأقدام جعل الجري السريع خارج السيطرة. وتجمع حفنة من عمال المزرعة، بمن فيهم كوبر حول السياج، لرؤيتها.

وحدها إيريس لاحظت الخطوط المتجهمة حول فم كوبر. وكانت ممتنة أنه لم يضطرها للترجل أمام الرجال..

وكأنه كان يقصد أن يبقيها متوترة، فلم يقل شيئاً عما حدث حتى الليل حين استدعاها إلى مكتبه. ولم تكد تقفل الباب حتى بدأ هجومه:

ـ لقد ظننتك أكثر تعقلاً من ركوب ذلك المتمرد والركض فيه عبر الثلج المتراكم.

وقفت هادئة بمواجهته، ترفض أن يرهبها:

ـ لقد أبقيته تحت السيطرة.. ثم إن هناك وحلاً أكثر من الثلج.

ـ وماذا عن التمرد الذي أظهره قبل ذلك؟ من العجب أنه لم يرم بك فوق السياج الخشبي.

كرهت إيريس إحساسها وكأنها طفل مشاكس يوبخه معلمه، وظهر هذا في لهجتها المتحدية.

ـ لقد وقعت عن ظهور الجياد من قبل.. وكذلك أنت.. إنه كان يُظهر ابتهاجه فقط.

هز كوبر رأسه:

ـ لن يكون هناك المزيد من المخاطرة إيريس. أنت تتركين العاطفة تغشى على حكمك الصحيح. تعرفين كما أعرف أنه من الصعب التعامل مع فحول الخيل، وأن هذا خطير أصلاً.

أجفلت من كلامه، لكنها أبقت ردها هادئاً:

ـ أنا شديدة الحذر لذلك.

تابع وكأنها لم تتكلم.

ـ إذا لم تكوني قادرة على إظهار بعض الاحتراس فلن تعملي معه أبداً.

وتقدم نحو الطاولة، يأخذ سيكاره من علبة مسطحة على زاويتها.

شدت إيريس قبضتيها إحباطاً:

ـ إنه بحاجة إلى الركض، وأردت أن أرى كيف سيتصرف تحت السرج. أنت من أعطاني الإذن لأعمل معه..

أخرج كوبر عود ثقاب بطريقة خشنة، فأكملت:

ـ إذا كنت تظن أنني خالفت الأوامر إلى هذا الحد..

وتلاشى صوتها.. لقد سمح لها كوبر بالكثير من الحرية مع الجواد، هذا دون ذكر إعطائها فرصة أسبوعين لإثبات جدارتها.. وهي مضطرة للاعتراف بأنه يغامر فيما يصدقه حول إدانتها.

ثم.. هي ليست الرئيس هنا. وهي تعرف تماماً كيف يحنق رب العمل حين يعتقد عامل لديه، وخاصة الجديد، أنه يعرف أكثر من رئيسه.

بدأت القول مجدداً:

ـ إذا كنت تظن أنني خالفت الأوامر، فلن أضع السرج عليه قبل أن توافقني الرأي بأن الوقت مناسب.

كانت نظرة الدهشة على وجه كوبر حين استدار إليها مضحكة. أخرج السيكار الرفيع من فمه، ثم نفض يده آلياً ليطفىء عود الثقاب وراح ينظر إليها، وابتسامة خفيفة على شفتيه:

ـ يا لأجراس الجحيم إيريس.. لم أكن أعرف أن روح الطاعة كامنة فيك.. لا بد أن هذا القول جعل معدتك تضطرب.

قطبت إيريس وجهها حين ضحك.. لكن صوت الضحك كان معدياً وغير متوقع، فلم تستطع منع الضحك من ملامسة شفتيها.

ـ لا تدع هذا يطربك برتسوم.. فقد كان أصعب مما تعتقد.

ضحك ثانية: دون شك.

لم تفهم إيريس مغزى حركته حين أخذ علبة «السيكار» ورماها مع الذي أشعله في علبة القمامة. أشار إليها بالجلوس فوق مقعد أمام منضدته استقر بدوره على طرفه.

ـ هل واجهت متاعب مع أي من الرجال؟

جلست تريح مرفقيها بعفوية على ذراعي المقعد:

ـ لا شيء لا أستطيع التعامل معه.

نظر إليها متنقداً، غير مصدق.. وسمعا دقاً خفيفاً على الباب:

ـ أدخل.

استدار مقبض الباب ودخلت ستيفاني تركض في الغرفة نحو أبيها.. مال كوبر إلى الأمام ليلتقط الطفلة ويرفعها إلى الأعلى:

ـ ماذا هناك؟

ـ أيمكن لأيريس أن تأتي لرؤية قططي الصغيرة؟

اشتد فك كوبر.. والتقت عيناه عيني إيريس.. أكملت ستيفاني هذرها.

ـ قلت لي إننا لا نستطيع حملها قبل أن تفتح عينيها.. لكن أمها لن تمانع لو نظرت إيريس داخل الخزانة.

ضغطت إيريس بأصابعها على ذراع المقعد.. استطاعت أن تعرف أن كوبر يحاول التفكير بعذر.

قالت:

ـ أنا متعبة جداً هذه الليلة ستيفاني.. ربما أذهب لأراها في وقت آخر.

ووقفت لتغادر المكتب.

التفتت ستيفاني وهي بين ذراعي أبيها:

ـ أوه.. أرجوك إيريس؟

جعلتها النظرة المحبطة على وجه الصغيرة تشعر بالخجل.. وأحست أن كوبر يراقبها عن كثب، وأن هذا ما يتوقعه منها.

أصرت بلطف:

ـ كان يوماً طويلاً حبيبتي.. ربما في الغد.

واتجهت إلى الباب متمنية لهما ليلة سعيدة وذهبت إلى غرفتها.

عندما وصلت أقفلت الباب، واستندت إليه، تشعر بإحساس رهيب لصدها الطفلة. إنها صغيرة مرحة، ذكية، ودودة، تتمتع إيريس في سرها بوجودها معها.

كانت ستيفاني كذلك صبيانية مشاكسة ووجدت إيريس بعض المرح في رفض الفتاة محاولة كوبر واليانور تحويلها إلى أنثى. إيريس نفسها كانت صبيانية كذلك. كانت تكره الشرائط والفساتين والدمى وتفضل الجينز والجياد وعمل رعاة البقر.. كانت تعتقد أنها والطفلة من النوع ذاته، وأنه من المقدر لكوبر أن يدرك عدم جدوى محاولة تربية ابنته وكأنها نبات منزلي.

ابتعدت إيريس عن الباب وتاهت للحظات في ذكريات طفولتها.. كان والدها رجلاً صارماً، لا يستسلم لإظهار العاطفة.. كان فخره الأبوي كبيراً لنضجها المبكر وتصميمها الطفولي على العمل إلى جانبه.

لم يشجع محاولاتها في البداية للحاق به أينما ذهب وذلك عندما كانت في

www.elromancia.com

الرابعة من عمرها، إلا أنه استسلم مع بلوغها الخامسة، فتركها تركب الخيل كل يوم معه، وحدد لها واجبات لاختبارها وتعليمها معنى المسؤولية. كانت لا تزال تحمل صورة لها فوق مهر كبير، سمح لها بركوبه في أول خروج لها معه لجمع الماشية، وذلك قبل عيد ميلادها السادس. بعد ذلك، قامت بأية مهمة سمح بها حجمها الصغير وتحملتها أعصاب أبيها.

اجتاحها ألم حلو ومرّ في آن معاً. لقد كانت أيام الحياة سهلة، وآمنة، إرثها كان إرثاً فاخراً.. وكبرت وهي مؤمنة أنها ستورثه لأبنائها من بعدها.. لكن هذا الإرث، وعلى الأقل الجزء الأكبر منه، ضاع في المزرعة. أحست إيريس بالألم لأن الإرث الوحيد الذي ستقدمه الآن هو إرث مكلل بالعار، ومخجل. إن لم تنظف صفحتها واسمها، فإن إدانتها ستلحق بها كظلها ما دامت حية، وربما إلى أولادها كذلك.. أما الآن، فقد أصبحت عاملة في مزرعة بدلاً من أن تكون صاحبة مزرعة...

نفد صبرها جراء الأفكار التعيسة.. وأخذت تستعد للنوم.. استلقت في الفراش وبقيت صاحية لوقت طويل، تفكر بأخيها غير الشقيق، وإمكانية وجوده في المنطقة.

أخيراً، استولى عليها تعب النهار ونامت.

ـ بست، إيريس!

أجفلتها همسة ستيفاني الطفولية. كانت في طريقها إلى المطبخ لتناول طعام الفطور، فمرت بباب غرفة ستيفاني.. ودهشت لاستيقاظ الصغيرة باكراً، فتوقفت واستدارت.

أبقت صوتها منخفضاً:

ـ ما بك ستيفاني؟

ـ أريد أن أريك القطط الصغيرة، قلت إنك ستأتين لرؤيتها اليوم.

فتحت الباب تمسك بيد إيريس، لم تستطع إيريس التفكير بطريقة مقبولة ترفض فيها الأمر، فتركت نفسها على مضض للفتاة التي قادتها إلى غرفتها.

سألت بصوت منخفض:

ـ ألا يمكن أن تضيئي الأنوار؟

ردت ستيفاني همساً:

ـ لدي مصباح يدوي.

أجفلت إيريس من النور الذي لمع في عينيها مباشرة، مدت يدها بصبر اتقاء النور ونظرت نحو الأرض أمامها.. كان باب الخزانة مفتوحاً جزئياً، فافترضت أنها الخزانة التي تتواجد فيها القطط.

تركت ستيفاني يدها لتفتح الباب، نظرت إيريس إلى الداخل، لتسأل:

ـ أين هي؟

لم تكن إيريس قد شاهدت هذه الكمية من الألعاب في حياتها خارج محل بيع ألعاب، أو في «كاتالوج»..

حولت ستيفاني المصباح إلى الزاوية الخلفية من الخزانة.. ومالت مع إيريس إلى الداخل لتريا بوضوح أكثر.. سمعتا مواء الأم اللطيف، وأزاحت ستيفاني لعبة هي عبارة عن دب كبير جانباً، لتكشف عن الأم وأولادها الستة.. مدت ستيفاني يدها الصغيرة لتجد يد إيريس، وراقبتا معاً القطة الأم ترعى صغارها.

قالت ستيفاني:

ـ يقول أبي إنني أستطيع اختيار واحدة منها للبقاء في المنزل.. لكنني لا أستطيع أن أفضل إحداها على الأخرى.

لم تشعر إيريس بدخول كوبر الغرفة إلى أن سمعت صوت لوح خشب يطقطق تحت قدمه. اجتاحها التوتر، ونظرت من فوق كتفها.. إذ لم يسهل النور المنعكس قراءة تعابير وجهه.

التفتت ستيفاني وكأنها أحست بتوتر إيريس المفاجىء، وأنارت وجهها الصغير ابتسامة صغيرة:

ـ هاي دادي.

سأل بلطف:

ـ كيف حال القطط هذا الصباح؟

ـ إنها تتناول الفطور.. لقد أيقظتني بسبب مواثها طالبة أمها.. متى ستفتح عيونها؟

أفلتت إيريس يد الطفلة، لكن كوبر قطع عليها الطريق، وأجاب بلطف:

ـ يوم آخر أو يومين.

وارتفعت يداه تمسكان بخصر إيريس من الجانبين للحد من تراجعها.. أجفلت للتشوش الذي أطلقته لمسته، ثم وقفت عاجزة تشعر بجسمه الصلب خلفها بينما كان يميل فوق كتفها لينظر إلى القطط.

تذكرت كيف ذابت بين ذراعيه، وألح عليها الشوق. أحست بالحرارة في ظهرها، ثم شعرت بالتوتر فجأة. في هذه الأثناء لم تع أن ستيفاني قالت لها شيئاً حتى تنبهت إثر لمسة كوبر على ذراعها.

قالت بارتباك:

ـ ما.. ماذا؟

كررت الصغيرة:

ـ أي واحدة تظنين أنه علي الاختيار؟

ـ أنا.. من الصعب الاختيار.. ربما عليك الانتظار إلى أن تكبر أكثر.

وأصابتها الخيبة من صوتها المقطوع الأنفاس.

قطبت ستيفاني وجهها، وقالت موافقة:

ـ أجل.. هذا إلا إذا أقنعت دادي بأن أحتفظ بها كلها.

أرسلت ضحكة كوبر المنخفضة أنفاسه الدافئة لتنساب فوق خد إيريس المحمر:

ـ لا أمل في ذلك أيتها العفريتة.. ستبقى في الجوار لتلعبي معها، لكن واحدة فقط ستعيش في المنزل.

ـ لكن.. أبي..

ـ دون «لكن أبي»... الوقت مبكر جداً في الصباح لنبدأ بذلك.

قطبت ستيفاني وجهها بشكل مبالغ فيه هذه المرة، وقالت:

ـ أجل.. أعرف أنك لم تشرب قهوتك بعد.

ـ هذا صحيح.

مد يده فوق إيريس، وشد جديلة من شعر ابنته البراق.

ـ ستقدم اليانور طعام الإفطار لي ولإيريس الآن. لذا من الأفضل أن نترك القطط لتنهي طعامها.

أحست إيريس بمزيج مربك من خيبة الأمل والارتياح مع تراجع كوبر عنها.

قالت بصوت ناعم لستيفاني:

ـ شكراً لك لأنك أريتني قططك.

ـ يمكنك المجيء لرؤيتها في أي وقت إيريس.

واستدارت الصغيرة تراقب القطط مجدداً.

تنحى كوبر جانباً ليفسح لإيريس المجال للابتعاد عن الخزانة، فسارت أمامه إلى الباب، ثم إلى الردهة. كانت أعصابها قد بدأت ترتاح حين أمسك مرفقها وأوقفها، وهو يمد يده ليقفل باب ستيفاني وراءهما.

استدارت نحوه، لكن الردهة كانت مظلمة. وبالطبع، لا تحتاج إلى الرؤية لتعرف أنه غاضب منها.

قالت:

ـ أنا آسفة.. لم أستطع التفكير بطريقة أصدها بها مرة أخرى.. ولم أتوقع..

ـ أعرف.. لن يخطر ببالها أن هناك بعض الناس، لا يجب...

وصمت فجأة.

مضت ثانية ثقيلة قبل أن يغوص ما كان على وشك أن يقوله في دماغها. حين استوعبت، تولاها غضب بارد، أزال آخر إحساس بالدفء استولى عليها منذ لحظات.. وتحركت لتحرر مرفقها، ثم تقدمت متصلبة في الردهة.

كان الجو حول مائدة الفطور عدائياً مرة أخرى. لاحظت اليانور التوتر

www.elromancia.com

بينهما، ورمت الصحون أمامهما بطريقة لم تترك أي مجال للشك في استيائها. . كانت إيريس تمد يدها لتأخذ قطعة توست، حين فكت اليانور مريلتها فجأة ورمتها كذلك. . طارت المريلة في الهواء لتحط على كرسي في آخر الطاولة.

ـ إذا قتل أحدكما الآخر قبل انتهاء الطعام، فالأفضل له أن يبقى حياً بما يكفي لينظف المطبخ.

ثم حملت كوب قهوتها، وخرجت من الغرفة.

نظرت إيريس إلى كوبر، دون أن تدهشها نظرته العاصفة. أبعد اليأس الذي تصاعد ليتشابك مع الغضب توترها، وترك ألماً عميقاً مكانه. . لن يتغير، ولن يغير رأيه فيها. من الغباء التفكير أنه قد يفعل. .

قالت:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أنقل أغراضي إلى تلك الغرف في نهاية سقيفة نوم العمال.

كان رفضه يتناقض مع نظرته الشرسة، وأكمل:

ـ لا أريدك هناك مع الرجال.

ـ ولا تريدني قرب ابنتك. . أستطيع القول إن الخيار الوحيد الذي أمامي هو أن أرحل.

ودفعت كرسيها إلى الوراء لتقف، فانطلقت يده عبر الطاولة تمسك بمعصميها.

عاود الغضب سيطرته عليها بقوة، وتصادمت نظرتاهما. . وأكملت:

ـ حصلت على ما يكفيني من نظراتك السوداء وطبعك السيء برتسوم.

راقب كوبر أساريرها المشدودة، وعرف على الفور مدى نجاحها في إخفاء غضبها المؤلم. . تلاعب الحنان الذي تحرك في داخله بشكل خطير ضد الرغبة التي تثيرها فيه شخصيتها القوية.

لقد كان مجنوناً في تركها تبقى، لكنه لن يدفع بها بعيداً الآن. بيد أن إبقاءها رغم كل المتاعب الناتجة عن وجودها أمر ليس منطقياً. تملكه التعب

إثر التفكير، فبالرغم من سجلها الأسود، كان بقاؤها مثل استنشاق أول أنفاس الربيع الحارة. ليس هناك الكثير من النساء اللاتي يشبهنها. . وما من امرأة، حتى والدة ستيفاني المتوفية، أثرت عليه كما تؤثر إيريس. اشتدت قبضته على معصمها برهة، ثم استرخت.

سحبت يدها منه بسرعة، لكنها لم تبتعد، بل ظلا يحدقان ببعضهما. . تغيرت تعابير وجهه القاسية وهذا ما أدهشها.

قال:

ـ ليس من المحتمل أن أتغير بما يناسبك، أكثر من إمكانية أن تتغيري أنت لتناسبيني. لكنني بحاجة إلى يد عاملة جيدة. . لقد نجحت في الاختبار عندما قررت إعطاءك الوظيفة، لكن لا تصادقي ستيفاني ولا تثيري المتاعب مع الرجال أو القانون، وأعتقد أن الوظيفة ستبقى لك طالما تقومين بها بشكل صحيح، أو طالما أنت تريدينها. . والخيار لك.

بعد ذلك التقط شوكته وجلس، وبقيت إيريس واقفة إلى أن أشار لها بالجلوس.

هل مرّت في اختبار الأسبوعين؟

اطمأنت قليلاً بالنسبة إلى مزاجه وشعرت بالارتياح لذلك. لكن يبقى هناك مسألة سكنها في المنزل واضطرارها إلى صد ابنته. . رفع رأسه ليلاحظ أنها لا تأكل.

ـ هل هناك شيء لا يعجبك في الطعام؟

ـ لا أحب أن أكون فظة مع ابنتك، وإذا أقمت في سقيفة نوم العمال، وتناولت الطعام في قاعة الطبخ. .

رد بصراحة:

ـ أنا لا أصدق ما قلته عن عدم إثارة المتاعب مع الرجال. . وأعتقد أن أحدهم مستعد للخروج عن الأدب معك. . لكن إلى أن يحصل ذلك وأطرد الفاعل، ستبقين هنا وتأكلين معنا.

لم تستطع إيريس أن تترك ملاحظته تمر:

ـ بسبب إبعادي عنهم سوف ينظرون إليّ نظرتهم إلى امرأة تقوم بعمل رجل. . وقد يظن رجالك أنك تفضلني عليهم، أو يظنون الأسوأ.

وجدت إيريس أنه من الصعب المحافظة على التواصل مع عيني كوبر، لأن كلاهما تذكر تلك الليلة في الاسطبل. تسللت الحرارة إلى وجنتيها، لكنها لم تبعد نظرها عنه. . واستقرت عيناه السوداوان على شفتيها لوقت قصير، قبل أن ترتفعا وتخترقا عن قصد عينيها.

انخفضت رموشه قليلاً دون أن تخفي لمعان عينيه، وقال:

ـ لا أعتقد أننا سنتجو من «الأسوأ» في هذا الموقف، حتى ولو لم تنامي هنا. . مهما حدث بيني وبينك فهو ليس من شأن أحد، بل هو من شأننا نحن.

كانت كلماته المذهلة، تصريحاً صريحاً بما ينوي فعله. . أجفلت إيريس لسماعها كلماته. . فقاومت لتستعيد رباطة جأشها. وقالت بحزم:

ـ أنا لا أبحث عن مغامرة مع رب عملي برتسوم.

رد:

ـ وأنا لا أعرض عليك هذا. لكن النوايا الطيبة تبدو في غير محلها أحياناً، خاصة عندما يكون هناك بعض الاتجاهات.

هزت رأسها: ليس معي.

أثرت ضحكته المنخفضة على أعصابها وكأنه يداعبها، لكنه لم يتفوه بشيء مكنها من الرد عليه ثانية. بردت وجبة طعامها، لكنها هاجمتها بتصميم يكفي لابتلاع معظمها قبل بدء يوم يومها المهني. وظلّ التوتر بينهما مشدوداً كأوتار البيانو.

***

٨ ـ أحرقها الثلج

مرت الأيام التالية وإيريس وكوبر غارقان بروتين عمل الربيع. .

لم يكن هناك سبيل لإنكار الإثارة التي تشعر بها كلما كان قريباً منها. . أو النظرات الحارة التي يرسلها نحوها من وقت لآخر. ورغم ذلك، كانت تصرفاته نحوها ضمن حدود الأدب دائماً، كان يعاملها مثل أي عامل مزرعة آخر خلال يوم العمل. . لكن حول مائدة الطعام في المنزل، أو خلال الأوقات النادرة التي يمضيانها وحدهما، كان يبرز التجاذب بينهما.

أقنعت إيريس نفسها أنها مرتاحة لأن أحد منهما لا يتصرف على أساس هذا التجاذب، لكنها لم تستطع إنكار تشوق جزء منها للمسة ذراعيه حولها.

رغم تلهيها بمشاعرها نحو كوبر، إلا أنها لم تستطع التغاضي عن مشكلتها المتعاظمة مع أحد العمال المدعو سمارتي سلمون. . فقد كان يتخطى الحد الأقصى المسموح به طوال الأسبوع في ملاحظاته الخارجة على الحياء، إلى ملامسة يد لا لزوم لها، ولقد صدته إيريس في كل مرة. كانت برودتها كافية لإحباط معظم الرجال، لكن اهتمامه بها كان يزداد رغم ابتعادها عنه. وهذا ما أصبح أكثر وضوحاً.

صرفت النظر عن اللجوء إلى كوبر حيال الأمر. . فالأنثى التي تحتاج إلى من يحميها من زميل عمل لها، عليها أن تجد لنفسها نوعاً آخر من العمل، ثم إن سمارتي يعمل في المزرعة منذ بضع أسابيع فقط، وتلقى تحذيراً لأنه لا يبدو جاداً في العمل، فهي تشك أنه سيبقى هنا بعد نهاية الأسبوع، وتظن أنه يمكنها التعامل معه حتى ذلك الوقت.

ركزت اهتمامها على الجواد الكستنائي الذي خططت لتعتني به قبل إنهاء يومها في العمل، وذهبت إلى غرفة العدة بحثاً عن رسن تربطه به. كانت تفتش في نصف دزينة من الرباطات المعلقة على الجدار، حين أحست بأول قشعريرة من التوتر تحولت إلى نوع من الذعر.. صممت على كبت هذا الإحساس، وتفحصت الرباطات عن كثب لكن أجفلها صوت إقفال الباب فنظرت من فوق كتفها.

ضحك سمارتي لها مزهواً بنفسه، قطبت إيريس وجهها واستدارت إليه.

قال متشدقاً، بينما ترك عيناه تجولان عليها وراح يخطو باتجاهها:

ـ حسن جداً الآن.. بعضكن أيتها الفتيات يجد لذة في لعب دور صعبة المنال.

قالت ببرود:

ـ أخرج من هنا سلمون.

كان الباب لا يزال مفتوحاً قليلاً، فاتجهت عيناها إليه بتوتر ظاهر، وراح قلبها يخفق بحدة. حاولت السيطرة على ذعرها يائسة ومدت يدها تأخذ عن الجدار أول رباط وصلت إليه يدها. لكنها حين حاولت الاستدارة حول سمارتي متجهة نحو الباب، رفع الأخير ذراعه ووضعه على الجدار ليسد طريقها.

قال متمتماً:

ـ لا داعي للعجلة.

واقترب نحو وجهها.

جف فم إيريس، وأخذت المسافة بينهما تتقلص إلى حد الاختناق.. فقالت بحدة:

ـ لدي عمل أقوم به.

ثم ضربت ذراعه، وتجاوزته. ضحك سمارتي، وترك ذراعه تهبط، ثم أمسك بخصرها.

لوحت إيريس بالرسن مذعورة وضربته به على ظهره.. صاح سمارتي ألماً وهو يبتعد عن الضربة اللاسعة.. لكنه استعاد وعيه بسرعة، وكانت قد أمسكت بمقبض الباب لتفتحه، حين رمى بنفسه عليه وأقفله مجدداً.

تعاظم الخوف في نفسها لإدراكها أنها علقت، كان رهاب الاحتجاز الذي تصاعد فجأة ليمسك بها لا يحتمل حتى أن التهديد الذي يمثله سمارتي بدا تافهاً بالمقارنة معه، ولم تعد تستطيع التقاط أنفاسها إذ أن شهقات الهواء الخفيفة التي كانت تتنفسها لم تكن كافية للتخفيف من حدة الضغط في صدرها.

فهم سمارتي جمودها على أنه استسلام لكنه كان مخطئاً. أدارها لتواجهه.. ومال بوجهه إلى الأمام، لكن إيريس ضربته آلياً.. صاح متألماً حين وقعت قبضتها على فمه لتحطمه.. تهاوى إلى الخلف دهشة، لكنه لم يتركها.. وخربشت إيريس يديه، لكنها لم تنجح سوى في زيادة غضبه.. اشتدت قبضته على ذراعيها كثيراً وراح يحاول رميها إلى الأرض.

كان الشجار بينهما قصيراً وعنيفاً، قاومت إيريس قوته الغاشمة، فاستشاط غضباً، ورماها إلى الجدار ليضرب وجهها على الخشب. تراقصت النجوم أمام عينيها مع تقدم وجهه نحوها.

حاولت أن تتلوى مبتعدة، لكن سمارتي تراجع عنها فجأة، فلاحظت بالكاد حركته حين تركها لتجثو على ركبتيها.

ـ يا ابن...

تبع صوت كوبر الراعد صوت الخشب يتحطم. رفعت إيريس نظرها لترى سمارتي مثبتاً فوق الباب المفتوح عاجزاً بينما راحت قبضة كوبر الضخمة تحطم وجهه.

لم تعد تحتمل البقاء لحظة أخرى. وقفت مترنحة، ومرت من وراء كوبر نحو ممر الاسطبل، ثم ركضت عبر السقيفة نحو أشعة شمس ما بعد الظهر. وراء الأبواب المفتوحة.

لا بد أنني أفقد صوابي!

كانت الفكرة مرعبة مثلها مثل خوفها من الاحتجاز. وأسرعت تركض، لا تنوي سوى الوصول إلى الأمان.

لم تكن البانور وستيفاني موجودتين حين دخلت الشرفة الخلفية وخلعت حذائها وسترتها بسرعة واتجهت إلى غرفتها.. بدأ الإحساس العائلي للمنزل يخفف من حدة خوفها.

أقفلت إيريس باب غرفتها، ورمت نفسها إلى مقعد ذو ذراعين، بينما كانت لا تزال ترتجف. مالت إلى الأمام لتريح مرفقيها على ركبتيها.. ثم أحنت رأسها تدس أصابعها في شعرها بخشونة.. بعد ذلك شدت على قبضتيها بقوة.

الأسوأ هذه المرة كان رعبها.. فقدت السيطرة على أعصابها تماماً، مما جعلها تشك في سلامة عقلها.. لو لم يصل كوبر في الوقت المناسب، فلا شك بما كان سمارتي سيفعله. ما إن أقفل الباب في ذلك المكان الضيق، حتى تداعت دفاعاتها القوية. كان حجمها أصغر من حجم سمارتي، ولم تكن تماثله قوة، لكنها كانت احتفظت بدفاعاتها لو أنها فكرت بجلاء، ولو كانت ردات فعلها أسرع وأكثر حزماً.

رفعت إيريس رأسها لسماعها كوبر يدخل المنزل من الباب الخلفي. كان قد حذرها من الوقوع في مشاكل مع رجاله، وعرفت أن غباوتها سمحت لسمارتي بأن يعتاد التحرش بها، الأمر الذي من شأنه أن يرمي بها في المتاعب، خاصة إذا أخذ كوبر على عاتقه أمر التدخل لإنقاذها.

دفعها وقع حذاءه عبر المنزل إلى الهرب باتجاه الحمام.. أحست بارتياح حين سكن الذعر بداخلها.. وأضاءت النور قبل أن تقفل الباب.

سمعت كوبر يقرع الباب، ثم دخل غرفة النوم بينما كانت تفتح صنبور الماء البارد في المغسلة.. نظرت إلى صورتها في المرآة فوق المغسلة فاضطربت.

كان شعرها منفلتاً، عيناها حمراوين، وشفتها السفلى متورمة وتنزف. مالت إلى الأمام لترش بعض الماء على وجهها.

- إيريس؟

وصل صوته الأجش إليها رغم صوت المياه الجارية.

- أنا.. أنا هنا.

أخذت حفنة ماء في يدها ووضعتها على شفتها، ثم أمسكت كوب ماء قريب منها وملأته لتغسل فمها من الداخل.

انفتح الباب قليلاً:

- هل أنت بخير؟

قالت متصلبة:

- سأعيش.

- سأستدعي الشريف.. ثم سأ..

لم تسمع إيريس البقية.. الشريف.. الشرطة.. جعلها الحذر تنظر إلى نفسها في المرآة.. ماذا لو.. لم تكن قد انتهت من التفكير بالموضوع حين أمسكت مقبض الباب وفتحته. كان كوبر قد استدار ومضى إلى نصف الطريق إلى الباب.

- كوبر.. لا تفعل ذلك.

كرهت نبرة الذعر في صوتها عندما أسرعت خلفه، استدار إليها فأكملت:

- لا تستدعي الشريف.

مد يده وأمسك ذقنها بلطف بين إبهامه والسبابة ليدير وجهها إلى الضوء.

تمتم وقد تحولت أساريره إلى الشراسة:

- ابن اللعينة!

مدت يدها تمسك معصمه محاولة إبعاد يده عنها:

- لا تستدعي الشريف كوبر.

- لم لا بحق السماء؟

أشاحت بعينيها ونظرت بعيداً، لكنه أجبرها على معاودة النظر إليه.

ـ ولم لا؟

أخذت نفساً سريعاً لتهدىء نفسها:

ـ لا أريد المتاعب.. لا أريد أن يرد اسمي على أي تقرير توقيف لأي كان أو في أي تحقيق.

تركها فجأة وقد ظهرت عليه الدهشة، فاستدارت عنه:

ـ أنا محكومة مفرج عنها بكفالة.. وهناك عدد لا حصر له من المخاطر في ذلك.

مشطت شعرها بأصابعها والتوتر باد عليها، وأكملت:

ـ لقد ضربته كوبر.. وإذا أراد، يمكنه تقديم شكوى معاكسة.

ـ لكنك ضربته دفاعاً عن النفس.

نظرت إليه بارتياب ساخر:

ـ وهل رأيتني أفعل ذلك؟ هي إذن كلمتي ضد كلمته.. وأنا التي لها سجل إجرامي، وبإمكانك التخمين قصة من سيصدقون.. إضافة إلى ذلك..

أشاحت بوجهها مجدداً:

ـ.. أنت تعرف كما أعرف أنا، أن رجالاً مثل سمارتي سلمون يدعون دائماً أن المرأة هي التي تحرشت بهم، ثم لم تتعاون. وأن الكثير من الرجال يؤمنون أن المرأة تتسبب بالهجوم على نفسها، وتفقد بذلك حقها بأن تقول لا.

توترت حين لم يرد كوبر فوراً.. وسمعته يطلق نفساً بطيئاً:

ـ وهل فعلت ذلك؟

كان السؤال كالصفعة.. إنها ليست عابثة.. ولا حتى معه، وكونه وجد ضرورة أن يسأل، فهذا دليل آخر على تقديره الهابط لأخلاقها.. اجتاحتها موجة اكتئاب لا تصدق، كانت تظن أنها تثبت جدارتها أمامه في الأيام التي مرت.

قالت بهدوء:

ـ أخرج من هنا.. اذهب واستدعي الشريف، ودعنا ننتهي من كل شيء.

تراجعت إيريس إلى الحمام، والتقطت فرشاتها لتسرح شعرها.. وإلى أن رشت وجهها بالماء مجدداً وخرجت، كان كوبر قد خرج.

كانت تخشى وصول الشريف، لكنها أحست فجأة بالتعب يثنيها عن الاهتمام كثيراً بذلك، فتمددت على بطنها فوق السرير ووضعت خدها على اللحاف.

حاولت تجاهل القرع الخفيف على الباب. لكن حين تكرر، نادت بغضب:

ـ ابتعد عني.

انفتح الباب، فجلست على مضض وتراجعت إلى نهاية السرير. دخل كوبر يحمل صينية، ثم أغلق الباب بكعب حذائه.

ـ قلت لك أن تبتعد عني.

تقدم إلى السرير ووضع الصينية على الطاولة بقربه، ثم جلس وأمسك بيدها حين حاولت الوقوف.

مد يده نحوها بنصف كوب من سائل ما:

ـ هاك.

ـ ما هذا؟

ـ دواء يريح أعصابك.

ـ لا يمكن أن أكون مسترخية حين يصل الشريف إلى هنا برتسوم.

ـ لم أستدع الشريف.. اشربيه.

نظرت إلى أساريره المتحجرة للحظات:

ـ وماذا عن سلمون؟

ـ جارد وأحد الرجال يأخذانه إلى حدود المقاطعة لرميه في كولورادو.. وأظنه أكثر حكمة من أن يعود.

شد على أسنانه مطلقاً اللعنات، فتابعت النظر إليه بارتياب.. انخفض

صوته إلى الهدير:

ـ اشربيه.

رفعت إيريس الكوب بحذر، ثم ابتلعت القليل منه. كبتت السعال بينما السائل المرّ يحرق طريقه إلى معدتها..

ـ دعينا ننظر إلى شفتك.

رفضت أول الأمر، لكنه أمسك ذقنها وترك إصبعه يمر فوق الجرح، فآلمها كثيراً.. وقالت بحدة:

ـ إنه مؤلم بما يكفي دون أن تحفره.

لفت نظرها وعاء ثلج، فأكملت:

ـ يمكنني استخدام شيء من هذا الثلج.

لف كوبر قطعة ثلج في منشفة صحون، وأعطاها إياها.. بدلاً من وضعها على شفتها، ضغطتها بحذر فوق ضربة على مؤخرة رأسها.. ولرؤيته هذا مد يده ليساعدها وأبعد يدها عنها.

ـ لست عجلة ثمينة فتضطر لتطبيبها برتسوم.

لكنه تابع الضغط اللطيف مكان الضربة في رأسها. لونت فمه ابتسامة لطيفة، فلمحت لمعان التسلية في عينيه عندما أنهى تفحصه الضربة. استدار لأخذ قطعة ثلج أخرى، ثم وقف مشيراً برأسه إلى حافة السرير العليا:

ـ اتجهي إلى هناك واستلقي.. اليانور لن تحضر العشاء قبل ساعة.. ولن يضيرك أن تستريحي قليلاً.

افترضت أنه سيخرج، وفعلت كما قال. أمسكت القماش مع الثلج بيدها لتبقيها على مؤخرة رأسها، واستقرت في السرير مباشرة لكن كوبر مال فوقها يلامس بلطف قطعة ثلج أخرى إلى شفتها.

قالت وهي تشعر بالإحباط لانقطاع أنفاسها:

ـ لماذا كل هذا؟

زينت ابتسامة بطيئة وجهه:

ـ اصمتي ودعيني أكمل العلاج.

ارتجفت عندما راح يمرر قطعة الثلج جيئة وذهاباً على شفتها السفلى.. أخذت حرارة أصابعه وحرارة بشرتها تذيب الثلج، وأحست بالدم يتصاعد إلى خديها.. أدارت وجهها لتتهرب من الثلج ومن لمسته.. فسرت رعشة شوق في عروقها، لكن القلب المتألم الذي لجمت فيه مشاعرها كان أقوى.

ـ هل هذا اختبار؟

ـ ماذا؟

أدارت وجهها، ولمعت عيناها الزرقاوان في وجهه:

ـ سألت ما إذا كان ذلك نوعاً من الاختبار؟ سألتني عما إذا كنت قد أغويت سلمون.. فهل يعني كل هذا العلاج ما يعنيه؟

لانت أساريره المتصلبة وهو ينظر إليها، خفض رأسه ببطء، فأجفلت لاقترابه لكنها لم تغمض عينيها.. ولم يغمض عينيه كذلك وما هي إلا لحظة حتى تراجع قليلاً..

ـ لا.. إيريس، ليس اختباراً. إذا كان هناك شخص ما يتعرض لاختبار هنا.. فهو أنا.

أحست بالجهد الذي يبذله كي يكبت مشاعره، والتفت يده حول خصرها.. ودون وعي منها تركت إيريس ذراعيها تلتفان حول كتفيه ثم عنقه.

شهقت حين استقرت راحة يده على كتفيها، وأدارت وجهها عنه كي لا يلامسها.. كانت أفكارها مشوشة، لكنها كانت واعية بما يكفي لترتاب بما يحصل.

ـ أسمع أن بعض الرجال يبتهجون بالعبث مع نساء «سيئات».

ملاحظتها المقطوعة الأنفاس لم تمنعه من متابعة مداعباته.. فتنهدت إيريس عاجزة نظراً للإحساس البرّي الذي سرى فيها، وتمكنت من القول بارتجاف:

ـ كفى.. توقف.

لكن حركاتها المتململة وأنفاسها المقطوعة جعلت طلبها مثيراً

للسخرية. كانت يائسة لاستعادة سيطرتها على نفسها، عضت على شفتها المجروحة، لكن الألم لم يعطها فرصة الخلاص من مشاعر.. ولم تع أنها كانت متعلقة به بيأس إلى أن حاولت تركه وإبعاده عنها.

فجأة لم تعد تهتم بدوافع كوبر.. مشاعرها القوية أعمتها عن كل شيء.. ارتفعت يدها تنتشر بقوة في شعره الكثيف.. كانت تعي الحذر الذي يعاملها به، فرفعت رأسها تنظر إليه.

ثم ما لبثت أن أحست بمدى السيطرة التي يفرضها كوبر على نفسه وعليها، فأرجعت رأسها لتريحه على الانحناءة ما بين كتفه وعنقه.

استعادت تعقلها على دفعات. كل واحدة أكثر ألماً من التي سبقتها.. ماذا تفعل؟

وكأنه يعرف كل ما تفكر به، فضحك:

ـ ليس من الطبيعي أن نصل إلى هذا الحد بسهولة.. أليس كذلك إيريس؟

رفعت رأسها لترى وجهه:

ـ وهل خططت لذلك؟

تنهد بخشونة، وفتح عينيه لينظر مباشرة إلى عينيها، فأدهشها الجوع الذي لم يهدأ فيهما بعد.

لكن ذلك كان مجرد رغبة.

كانت تعرف جيداً أن المرأة التي تروق للرجل فجأة، ليس بالضرورة أن يكون لها القوة لتكتسب قلبه.

قال:

ـ لم أخطط لهذا.. لا، لكنني لا أستطيع القول إنني لم أكن آمل أن يحدث.

أكمل بأنفاس منخفضة:

ـ ما رأيك إيريس؟ يمكن أن يكون لنا أوقات مجنونة معاً.

سألت، وهي تعرف الرد:

ـ وإلى أي مدة؟

كانت تحس بخوف رهيب من أنها قد بدأت تقع في حب عميق معه، بالرغم من كل شيء. ومن الأفضل أن يسحق هذا الإحساس الآن، بدلاً من الانتظار أكثر، لأنه حينها سيكلفها الكثير.

كان لا يزال يداعب خدها حين كررت السؤال، وتراجعت عنه في محاولة لجذب اهتمامه.

رمى كوبر رأسه على الوسادة وأخذ يتفحص وجهها المحمر.. كان اللمعان الغريب الذي دخل إلى عينيه تحذيراً لها مما هو قادم:

ـ إلى المدى اللازم لتخبو النار.. حبيبتي.

مع أنها توقعت الرد، إلا أنها لم تكن جاهزة تماماً للألم الذي تسببه لها.. قالت بحدة تذكره:

ـ قلت لك إنني لا أبحث عن مغامرة عابثة مع رب عملي.

لقد أوضح تماماً أنه يهتم بشيء رخيص معها.

أدركت عندها أن ما تريده حقاً كان الجدال، حاراً أو مراً. ثم احتاجت فجأة إلى الابتعاد عن عاصفة الإحباط والألم التي هبت في داخلها.. يكفيها الجدال معه، بينما كان بريق عينيه ينم عن استعداده الكبير لذلك.

قال محذراً:

ـ أنت تخطئين إذا كنت تظنين أن إمساك نفسك عني قد يأتيك بفائدة أكبر.. ليس لديك ما يكفي لتقايضيه بخاتم ومراسم.

برّد الثلج الذي أخذ يزحف في شرايينها آخر ما تبقى من مشاعرها.. وعرفت من النظرة الباردة في عينيه أنه يعاني مثلها.

التوى فمها بخطوط متجهمة:

ـ أعتقد أنك أرسلت جارد لرمي مثير المتاعب الذي أخطأ من المزرعة.

رفعت نفسها عنه وابتعدت. التفت يدها بمنشفة المطبخ المبللة بالثلج الذائب، فرمتها نحو الصينية.. ثم رمت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها.. كانت اللذعة التي أحست بها تحت جفنيها قوية، لكنها كانت

مصممة على عدم ذرف الدموع بسبب كوبر برتسوم.

أخيراً أحست به يبتعد، فاستلقت متصلبة إلى أن سمعت الباب يقفل.. استدارت بيأس إلى جانبها وفتحت عينيها الجافتين لتحدق دون أن ترى شيئاً وسط ضوء النهار الذي تلاشى خلف الستائر.

أحست إيريس بالارتياح حين سمح لها كوبر بقيادة الشاحنة الصغيرة إلى البلدة لتبتاع علف الجياد الخاص الذي طلبه. كان حتى الآن متحفظاً ولا مجال للاقتراب منه.. ورغم أنه كان يعاملها بشكل لا يختلف عن عمال المزرعة، إلا أن البرودة في عينيه وغياب سمارتي سلمون، سمحا لها أن تشغل الغرف المنفصلة في سقيفة نوم العمال، وهذا ما أنقذها من المكوث معه تحت سقف واحد، لكن لم يكن هناك خلاص من أوقات كانت مضطرة فيها إلى العمل بجانبه.. ورغم كون هذه الأوقات قليلة، بيد أنها توقعت أن ينتقد عملها ويجد عذراً لطردها، لكنه لم يفعل، وكان عدم اكتراثه لبقائها أو ذهابها، أصعب من الخصام الصريح.

كانت تفكر بتقديم استقالتها والخروج بحثاً عن عمل آخر.. أصبح لديها الآن راتب أسبوعين وثالث تقريباً.. هكذا أصبحت تملك ما يكفي لإعالتها إلى أن تجد عملاً.. مع ذلك، فإن شعورها بالاستقلال وهي تقود السيارة إلى البلدة جعلها تعيد التفكير بترك العمل قريباً.. العمل لدى كوبر ليس ثقيل الوطأة، لذا رأت أنه من الأفضل أن تبقى إلى أن توفر ما يكفي لشراء سيارة مستعملة، أو شاحنة صغيرة.. وسيكون ذلك خطوة نحو استعادة ولو جزء صغير مما اضطرت إلى التخلي عنه.

ما أن وصلت مخزن العلف، حتى وجدت أن عليها إيقاف السيارة في مؤخرة المبنى لتحميل العلف المنتظر على الرصيف، وأعطت إيريس الموظف شيك المال من كوبر، الذي قال:

ـ أتريدين مساعدة في ذلك يا آنسة؟

هزت رأسها نفياً وابتسمت:

ـ أستطيع القيام بالعمل وحدي.

بدا الموظف غير مرتاح لتركها تحمل العلف وحدها، لكنه عاد إلى الداخل. بدأت إيريس العمل، كانت نصف منتهية حين توقف «بيك آب» أزرق في منطقة التحميل إلى جانب سيارتها. لم تنظر إليه أكثر من نظرة خاطفة ثم تابعت العمل إلى أن وضعت آخر كيس في مكانه ونزلت من مؤخرة الشاحنة الصغيرة.

كانت تخلع قفازيها حين انفتحت أبواب الشاحنة الأخرى وخرج منها ثلاثة رجال، فرفعت إيريس نظرها.. وجمدت.

قال الرجل الذي سدّ لها الطريق:

ـ ما الأمر.. أختاه..؟ تبدين وكأنك رأيت شبحاً.

بدا أن بلاك رايدر يتمتع بدهشتها، وابتسم للرجلين المستندين إلى سيارتهم بطريقة تآمرية.

اندفعت إيريس بتهور محاولة الهرب، إذ أن رؤية بلاك فجأة حطمت أعصابها. لكن إحساسها الرهيب بالخوف كان أكثر قوة.

هذا ما كانت تأمل به طوال تلك الأيام الطويلة في السجن.. لكن المشكلة أنها كانت تنوي أن تجد بلاك هي أولاً.. ثم تبتعد عن الأنظار إلى أن تجد طريقة تكشف فيها نشاطه غير القانوني. لم تتصور أبداً أنه يعيش في مكان ما حيث يظنه الجميع مواطناً شريفاً، ثم إن الطريقة المتعجرفة التي كان ينظر فيها إليها أخبرتها أنها محقة.

كانت نظرته، وابتسامته المتغطرسة، هي التي أفقدتها السيطرة على غضبها.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ عرفت أنك لا تزالين غاضبة مني.. لكنني ورفاقي نكن لك النوايا الطيبة.

ورفع يده اليمنى وكأنه يقسم.

ابتسمت ساخرة، وحاولت إخفاء خوفها المتجدد شاعرة أنه ينوي توريطها بما يخطط له بطريقة ما. تمنت لو تستطيع الهرب والوصول فوراً إلى

الشريف، فقد تتمكن عندئذ من ردعه.. مع أن الوثوق بشريف آخر في إظهار الحقيقة كان فكرة مرعبة بالنسبة لها، لكن ما من خيار آخر لها. فالزمن لم يغير من بلاك شيئاً.. إنه الآن أشد خطراً عليها من قبل.

ـ ماذا تريد بلاك؟

قال بلهجة ناعمة طالما كرهتها:

ـ أبداً حبيبتي.. لا داعي لأن تشكي، أنا والرفاق بحاجة إلى بعض المعلومات.. هذا كل شيء.

أجفلت:

ـ إذن يجب أن تكلم شخصاً آخر.. فأنا لا معلومات لدي.

بدأت تبتعد، لكن الرجلين المرافقين لبلاك تقدما ليستندا إلى شاحنتها، متعمدان سد طريقها.

استدارت إيريس إلى بلاك، فتابع:

ـ كما كنت أقول.. نحتاج إلى معلومات.. على أية حال، أنت التي تسببت بطرد برتسوم لرجلنا عنده. لذا نعتقد أنه يجب عليك أن تفعلي شيئاً للتعويض عن ذلك.. مثل أخذ مكانه.

اضطربت معدتها.. الرجل الذي تسببت في طرده؟ سمارتي سلمون جاسوس؟ لكنها لم تشك يوماً أنه متورط في عملية السرقة.

هز بلاك رأسه:

ـ أترين.. أنا والفتيان لا نحب التسلل إلى المراعي في الظلام محاولين وضع أيدينا على أفضل الماشية.. وكذلك علينا تفادي مشكلة وصول أحد في التوقيت غير المناسب، فلا مجال للقول ما يمكن أن يحدث، إن أصاب أحد رماحنا عن طريق الخطأ وللتحذير أحداً ما بأذى.

ضحك وكأن الصورة مسلية:

ـ إضافة إلى ذلك، نحن نحب أن نأخذ وقتنا في الوصول والخروج، وإبقاء القطيع هادئاً كي لا نخسر من وزنه فيقل ثمنه.. ومن الأفضل للعمل أن يكون هناك شخص لنا في الداخل.. حين سمعت أنك هنا، فكرت أنك

طبعاً ستساعدينا.. فأنت كل عائلتي.

دعته إيريس باسم كريه جعل أحد الرجلين يضحك ضحكة مكبوتة.. وحوّل الغضب أسارير بلاك إلى تعابير بشعة، ومد يده ليضربها فاصطدمت مؤخرة يده بخدها. أفقدتها الضربة توازنها فارتمت إلى جانب البيك آب. سحقها بجسده الضخم ليثبتها مكانها.. اقترب وجهه منها، فأبعدت وجهها عنه.

همس في أذنها بلهجة شريرة:

ـ لا تذهبي إلى الشريف ظناً منك أنه سيساعدك. فما إن تخبريه بحديثنا هذا، ويعرف أنك خارجة حديثاً من السجن، أظن عندها أنه سيوفر على نفسه متاعب جمة، ويقدم تقريراً حول مفرج عنه بكفالة قد خرق القانون. ولن يهمه إذا كنت قد خرقت حقاً القانون أم لا، لأنه يكره المحكومين كالجحيم.. ويشدد عليهم الخناق إلى أن يحصل على شيء ضدهم.. فذلك يبقي مقاطعته نظيفة.

حاولت إيريس دفعه عنها.. وتملكها الخوف الذي حاولت إخفاءه، وأكمل بلاك:

ـ إضافة إلى هذا، لدي شيء قد يغير لك رأيك.

هزت رأسها بعناد:

ـ لا شيء يغير رأيي.

ـ إذن.. سأضطر إلى تدبير الأمر كي تكوني أنت المذنبة.

أحست إيريس بالدم يجف في وجهها: ماذا؟

هز كتفيه:

ـ كل ما عليك معرفته هو ما حدث من قبل. جيرانك وأصدقاؤك هم الذين حكموا أنك مذنبة، ولن تنالي فرصة مع القانون طوال حياتك.. لا أصدقاء لك الآن.. بل مجرد سجل إجرامي.

تراجع عنها، ثم دفعها نحو باب شاحنتها.. فتهاوت، ومنعت نفسها من السقوط بإمساك المرآة الجانبية.

استجمعت شجاعتها، والتفتت إليه:

ـ لن أساعدك بلاك، مهما فعلت بي.

ـ ستغيرين رأيك بسرعة كافية حبيبتي.

والتفت ليبتسم لرجليه:

ـ قلت لكما إنها عنيدة كالبغال.

ابتعد الثلاثة، وصعدوا إلى شاحنتهم فأصاب الحصى المتطاير ساقيها مع دوران الإطارات.

تركتها صدمة المواجهة ترتجف.. نظرت حولها، آملة أن يكون موظف المحل قد عاد إلى الخارج ليشهد ما حدث، فهذا ما سيساعدها كثيراً.. لكن المدخل كان خالياً، ولا يبدو أن أحد ما هناك.

فتحت إيريس السيارة وهي ترتجف وصعدت إلى الداخل.. فكرت بالذهاب رأساً إلى الشريف.. لكن الخوف الرهيب الذي تملكها لما قاله لها بلاك ازداد بشكل لا يطاق.

ثم فكرت أن تقول لكوبر ما حصل، وتحاول الحصول على دعمه، لكنها صرفت النظر عن تلك الفكرة، فلكوبر فكرة سيئة عن سجلها الإجرامي، وهو الآن مبتعد عنها، ولا تجرؤ على الثقة به.

ارتجفت يدها وهي تدير المحرك، إذ أن فكرة أن يتمكن بلاك من توريطها في شيء ما يضمن عودتها إلى السجن، قد أرعبتها.. أية مخالفة لإطلاق السراح المشروط، سيعني لها خمس سنوات أخرى في تلك المساحات الضيقة الخانقة، مع أشخاص عدائيين، بعضهم لا شفقة عنده، والبعض مجنون، والآخر لا قلب له أبداً.. وليس الجميع ممن يمكن معاشرتهم.. تملكها الغثيان للذكرى، وانتظرت أن تهدأ أعصابها بينما كان التوتر بادياً عليها.

في مكان ما وسط ذعرها، تذكرت أليك فارنغتون.. قد يتمكن من مساعدتها، شريطة أن يكون قد عاد إلى بلدته الآن.. والأمر يستحق المحاولة، فأحست بوجود بريق من الأمل.

حركت الشاحنة بسرعة وخرجت من الزقاق. حجرة الهاتف الوحيدة التي شاهدتها كانت قرب مركز البريد.. وفي وقت قصير، حصلت على رقم هاتف مكتب أليك من عاملة الهاتف ودست المزيد من القطع النقدية المعدنية لتغطي كلفة المخابرة.

بعد لحظات، كانت مع مكتبه على الخط.. أليك أخذ إجازة بضعة أيام ولن يعود إلى المكتب قبل أسبوع. وقالت سكرتيرته إنها لن تتمكن من معرفة مكانه، لكنها سجلت رسالة إيريس، ووعدت بإيصالها إليه إذا اتصل.

عادت إلى الشاحنة ودخلتها، شعرت بحالها أسوأ من قبل.. كان أليك أملها الوحيد. فلو تكلم مع كوبر، أو أفضل من ذلك، لو مهد لها الطريق مع الشريف، لكان القبض على بلاك ممكناً.. لكن، والحال كما هي عليه فلن تستطيع إيريس إجبار نفسها على الذهاب إلى الشريف وحدها.

لم يبد الآن أن فضح أمر بلاك، وتبرئة اسمها، أمر مهم.. قد تتمكن أخيراً من العيش مع سجلها الإجرامي.. لكنها لن تستطيع مواجهة السجن مرة ثانية.

أغمضت عينيها يائسة، يخجلها الجبن الذي تحس به. كان العقل السليم يصر عليها أن بلاك قد ينجح في توريطها مرة أخرى.. وحذرتها الخبرة أنه قادر على ذلك.. فتحت عينيها لتنظر إلى الشارع دون أن ترى أمامها محاولة كبت مخاوفها.

حين أدارت الشاحنة وحركتها، كانت قد اتخذت قرارها.. سوف تترك عملها ما أن تعود إلى المزرعة، ثم تطلب من كوبر إرسال من يوصلها إلى موقف الباص، حيث ستستقل أول باص يتجه إلى أي مكان، وتصلي كي تتمكن من الابتعاد أميالاً قدر المستطاع عن بلاك رايدر.

مع شيء من الحظ، وإلى أن ينفذ بلاك ما يخطط له، ستكون بعيدة جداً بحيث لا يشكل فعله أي تهديد على مرتبها.. فيما بعد، حين تصبح آمنة، ستتصل بالشريف وتطلعه على نشاط بلاك. وستكون المخابرة من مجهول،

وستؤمن بذلك عدم ظهور بلاك مجدداً في حياتها، وتكوّن حياة جيدة لنفسها في وقت تستقر فيه أخيراً. تراجعت إيريس لتوجه السيارة نحو المنزل والألم يملأ قلبها لما ستفعله.. إذ أنها أدركت أن مزرعة برتسوم أصبحت بطريقة ما «المنزل» بالنسبة لها.

***

٩ ـ الطريق إلى السجن

ـ ماذا فعلت لوجهك؟

كان سؤال كوبر حاداً. لكن إيريس شدت على أسنانها وأنزلت كيساً آخر من العلف من باب الشاحنة الخلفي. رفعت يدها بالقفاز وضغطتها على المكان الذي ضربها عليه بلاك.. كان لا يزال يؤلمها، لكنها لم تعتقد أن أحداً سيلاحظه، ثم استدارت لتمسك بكيس آخر.

راوغت في الرد:

ـ لم أكن حذرة.

بدأت بجر الكيس إلى الباب حين مد يده ليمسك بالكيس التالي. نظرت إليه ولاحظت اهتماماً كبيراً تنم عنه نظرته.. ما جعلها تشك بصدق البرودة التي كان يعاملها بها.

إنها مصيبة في أن لا تخبر كوبر بأمر بلاك. فهو لن يدعمها أبداً لو ذهبت إلى الشريف.. ولربما عدم ثقته بها قد يورطها أكثر.

ما أن رمت الكيس الثقيل في الأرض، حتى قالت:

ـ من الجيد أنك هنا برتسوم، سأترك العمل اليوم.. وسأكون ممتنة لو أرسلت أحداً..

وشدت كيساً جديداً نحو الباب:

ـ.. يوصلني إلى محطة الباصات.

حل صمت ثقيل بينهما وهما يفرغان الشاحنة الصغيرة. لم يرد كوبر على ما قالت إلى أن وضع العلف في المخزن.. وقفت إيريس جانباً كي يقفل

www.elromancia.com

الباب. حين استدار نحوها، ركزت اهتمامها على قفازيها.

ـ ولماذا الآن؟

لم يكن من السهل الرد عليه.. ليس وهي مضطرة للكذب. فتسلل لون الذنب إلى خديها:

ـ قررت الرحيل.

ـ بسبب ما حدث تلك الليلة؟

هزت رأسها نفياً:

ـ لا دخل لهذا بذاك.

قطب وجهه قليلاً.. رغم أنه تقبل ردها، إلا أن تعبير فكه المصمم حذرها أنه لن يتركها تذهب بسهولة.

ارتفعت يده ومرر ظهر إصبعه على الكدمة الخفيفة على خدها.

ـ شيء ما حدث في البلدة اليوم.

ارتجفت رموش إيريس وانخفضت، إنه مرتاب جداً.. لا تتصوره واقفاً إلى جانبها، حتى ولو عرف كل شيء. لقد فقدت الأمل في أن يتصل بأليك ليسأله عنها.. فمن دون دعمه، سيغضب كوبر لو عرف أنها اتصلت بسارقي المواشي الذين يستهدفون قطيعه، وإذا عرف أن زعيم العصابة هو أخوها غير الشقيق، فلن ينتظر ليسمع بقية القصة. وستكون خلف القضبان مرة أخرى.

تذكرت إعلاناً رأته على باب مخزن الغلال لطلب مساعدين.. كره ت اضطرارها لإعطائه عذر كاذب كي تترك العمل فجأة، لكنها تعرف أنه لن يرتاح قبل أن تعطيه هذا العذر.

ـ لقد رأيت إعلانين يطلبون فيهما عمالاً على باب مخزن الغلال.. أحدهما كان للعمل مع الجياد قرب «شايين».

تركها كوبر أسيرة الصمت إلى أن تطوعت بنظرة نحوه.. لم يكن وجهه متجهماً بل كان في وجهه نعومة أثرت على عواطفها.. وجعلتها تشك في صحة قرارها أن لا تقول له شيئاً.

سأل بصوت واضح:

ـ هناك أكثر من ذلك في الأمر.

ترددت إيريس.. لم تكن نظرته اللطيفة متوقعة بقدر ما كانت مقنعة.. قاومت تلك النظرة محاولة الشعور بالقوة. إن كوبر لا يعرفها جيداً.. وما يعرفه عنها لا يعجبه. لا يزال ذلك الرجل الذي يرغب بأوقات مجنونة مع امرأة لا يعتبرها تستحق مكاناً أكثر احتراماً في حياته.. رأت في النهاية أن ترك العمل والمنطقة هو فرصتها الوحيدة للخلاص من بلاك ورد ابتزازه عنها.

أشاحت بنظرها كي لا ترى التوسل الواضح في نظرته وتلاعبت بقفازيها.. قالت:

ـ أنا آسفة، لن أستطيع إعطاءك إنذار استقالة أطول من هذا. سأكون ممتنة إذا أرسلت أحداً يوصلني إلى محطة الباصات.. لن يلزمني أكثر من عشر دقائق لتحضير أمتعتي.

واستدارت نحو المنزل لتبدأ توضيب ثيابها. لكن صوته أوقفها:

ـ لن يكون هناك باص يخرج من ردهاوس قبل الغد.

استدارت إليه تتفحص قسمات وجهه العنيدة علها تجد دليلاً يخبرها أن هذه المعلومات غير صحيحة فهي مضطرة إلى السفر فوراً.

وكأنه فهم عدم ثقتها، فعبس:

ـ اتصلي بالمحطة بنفسك إذن، بإمكان اليانور إعطاءك الرقم.

ثم تخطاها ليغادر المكان.

وقفت إيريس تراقبه للحظات وهو يبتعد قبل أن تتجه إلى المنزل. كانت تأمل أن يكون مخطئاً حول مواعيد الباصات، لكن إذا لم يكن كذلك، فهي بحاجة لمعرفة موعد مغادرة الباص التالي.

لم تبق في المطبخ طويلاً بعد أن طلبت محطة الباصات وعرفت أن الباص التالي لن يتحرك قبل ظهر الغد.

في الصباح التالي، غطت إيريس في النوم إلى ما يقارب السابعة..

خرجت من السرير مضطربة، تشعر أن النهار قد سبقها بساعتين.. هي لن تغادر قبل الظهر إلى محطة الباصات، لكنها كانت تقصد أن تمد يد المساعدة في بضعة أعمال قبل ذهابها إلى المنزل لتقبض آخر أجر لها.. نظفت غرفتها ورتبتها، وكانت على استعداد للذهاب إلى المطبخ لتناول القهوة وأكل شيء حين سمعت دقاً عنيفاً على بابها:

- إيريس!

جعل صوت كوبر الراعد الخوف يخترقها.. وأسرعت إلى الباب تفتحه.

كان كوبر يقف على العتبة، وجهه مظلم بسبب الغضب. طافت نظرته عليها، ثم عادت إلى تعابير وجهها المذهولة.. تقدم نحوها بشراسة جعلتها تتراجع آلياً:

- أين كنت بحق السماء؟

- استغرقت في النوم.

داخلت السخرية نظرته الغاضبة:

- وهل أمضيت ليلة قلقة؟

لم تكن قد شاهدته من قبل بمثل هذا الغضب، وكونها هدف غضبه أخافها وأربكها، فهناك شيء مخيف خاطىء:

- ماذا حدث؟

نظر إليها من تحت حافة قبعته، بينما كانت تعابير وجهه المتحجر مخيفة.

- دخل أحدهم إلى الاسطبل ليلة أمس وسرق بلاكي.

مضت لحظة قبل أن تستوعب كلامه.. ولا بد أن صدمتها بدت ظاهرة، لأن الغضب الذي كان يعتم وجهه تراخى قليلاً.

هزت رأسها غير مصدقة:

- سرق؟ لكن كيف..

صمتت فجأة وتمكنت من فهم سبب غضبه، فهي على الأرجح

الشخص الوحيد الذي يمكنه إخراج بلاكي من الحظيرة وسط الليل..

- وهل تظن أنني الفاعلة؟ لا.. كوبر.

- إذن أخبريني من سواك يستطيع ذلك.

هزت رأسها واستدارت عنه محبطة:

- يا إلهي.. لا أصدق أنك تعتقدني قادرة على ذلك.

تنهد بخشونة:

- أجل.. لا بد أنها فكرة مجنونة خطرت لي من حيث لا أدري.. فأنت ليس لك تاريخ في سرقة المواشي.

سخريته آلمتها، فاستدارت إليه غير قادرة على إخفاء الألم.

- لو فكرت بالأمر ملياً.. لوجدت أنني لم أفعلها.

- أنت على حق.. فلا شاحنة، ولا حاوية، ولا مكان لك تخبئينه فيه.. لكنه جواد لا يمكن لأحد غيرك الاقتراب منه بسهولة! لو كان في المرعى في مكان ما لكان من السهل على أي كان يملك جياداً سريعة وحبالاً كافية أن يضع يده عليه.. لكن أخذه من الاسطبل؟

تسلل إحساس بالسقم إلى داخلها وهي تتذكر كلمات بلاك: لدي شيء يجري قد يغير لك رأيك.. سوف أدبر الأمر لتكوني متورطة.. فهل سرق بلاكي، ليغير رأيها؟ السرقة تبدو وكأنها تنفيذ لتهديده في جعلها تبدو مذنبة.

أدارت ظهرها إلى كوبر، تفكر بشكل محموم. لا بد أن بلاك هو من سرق الجواد.. وأن يخرج عن المألوف ويخاطر مخاطرة كبيرة ليثبت وجهة نظره، هو أمر مرعب. كيف يخطط لسرقة الجواد في سبيل إجبارها على مساعدته؟

ثم كيف تمكن من سرقة بلاكي أصلاً؟ فالجواد لم يتصرف يوماً بشكل جيد في حضوره. رغم أنها لم تضبطه يوماً يسيء معاملة جواد، إلا أن الإمكانية موجودة وهي واثقة من ذلك.. من الصعب السيطرة على بلاكي، وقد يجعل هذا بلاك يسيء معاملته.. أو الأسوأ بعد.. وأحست إيريس

بالمرض إثر الفكرة المظلمة التي خطرت لها.. بلاك يعرف أن الجواد مميز بالنسبة لها. فجأة، عرفت أن الجواد هو الأداة الحقيقية التي ينوي بلاك استخدامها ضدها.

- إيريس؟

جعلها طلب كوبر منها الاهتمام به تنظر إليه. سألت:

- هل أنت واثق أنه سرق؟ هل من الممكن أن يكون قد هرب؟

قطب كوبر حاجبيه، وتلاشت آمالها:

- أحضري معطفك.

ومد يده يأخذ سترتها وقبعتها من التعليقة ويرميهما لها. ارتدتهما بسرعة ثم أسرعت بالنزول إلى الحظيرة لترى بنفسها أي دليل. لا شك في وجود دليل ما للمقاومة، فبلاكي لا يترك مجالاً لكي يقوده أحد بالقوة.

كانا قد وصلا شرفة سقيفة العمال حين تكلم كوبر مجدداً.

- الشريف روبي سيطرح عليك بعض الأسئلة.

جمدت واتجهت نظرتها إلى كوبر، رأى ذلك فتبسم ساخراً:

- لو ذهبت إليه وأنت هكذا.. سيعتقلك دون شك.

ثم أكمل طريقه.

لحقت به إيريس والذعر يتملكها.

قالت باستياء:

- أعتقد أنك قلت له إنك تظنني الفاعلة.

- لا حاجة لأن تقلقي إذا كنت بريئة.

كادت إيريس تختنق بالغصة التي تصاعدت إلى حلقها.. فكونها بريئة لم يفدها بشيء من قبل.

- إذا.. كنت تظنني الفاعلة، فهو إذن واثق من ذلك.

سأل بخشونة:

- أيمكنك النظر إلى عيني مباشرة والقول إنك لا تعرفين شيئاً عن الأمر؟

نظرت إيريس إليه، وقد فاجأها بسؤاله. يمكنها أن تقول صادقة إنها لم تسرق الجواد، لكنها ستكذب لو قالت إنها لا تعرف عنه شيئاً.. إنها مقتنعة بأن بلاك متورط في ذلك، لكنها لا تعرف كيف تقول لكوبر هذا.. وكان ترددها مديناً لها.. فقال:

- هذا ما فكرت به.

ثم تركها وكأنه يكره ملامستها.. وابتعد لتسرع خلفه تشعر أنها مدانة.

كانت سيارتا دورية للشرطة متوقفتين خارج الاسطبل.. وبضع عمال مجتمعون حولها. أحست بالتقيؤ في معدتها عندما مرت بهم ودخلت الاسطبل مع كوبر.

كان الشريف ومساعدين له يقفون خارج حظيرة بلاكي، ونظر الثلاثة نحوهما حين دخلا، لكن الشريف وحده تقدم نحوهما.

قال كوبر:

- هذه إيريس برايبون.

ابتسم الشريف، لكن عيناه اللوزيتان اخترقتا عينيها بثبات جعل قلبها يخفق بقوة. كانت وقفته العسكرية تؤكد السلطة التي عرفت أنه سيمارسها عليها.. وأحست بوجهها يتصلب دفاعاً عن النفس.

- آنسة برايبون.. أنا الشريف روبي.

لم تشعر إيريس بالارتياح لتحيته، رغم أنه رفع يده لامساً قبعته إظهاراً للاحترام، وكانت هزة من رأسها هادئة كل ما استطاعت أن تفعله لتحييه. كان من الصعب دفع الخوف عن أساريرها.. وكان الأصعب إخفاء العداء المفاجيء له.

قال:

- أنا واثق أن كوبر أخبرك بما يعرف حتى الآن.

واستدار إلى كوبر.

- جارد وجد كلاب الحراسة مخدرين في سقيفة المعدات ويقول إنهم

www.elromancia.com

سيكونون بخير.

عاد اهتمام الشريف إليها:

ـ لدي بضع أسئلة أريدك أن تساعديني بها.. فهمت أنك الشخص الوحيد هنا القادر على التعامل مع ذلك الجواد دون إثارته.

ضحك مكملاً:

ـ لقد رأيت كوبر يستخدم كامل خبرته من أجله مرتين، لذا أعتقد أنك نوع مميز من الفارسات.

ابتعدت نظرتها عن نظرته.. كان مديحه موجهاً لإعطائها إحساس زائف بالأمان، وهي واثقة من ذلك.

ردت بخشونة، أثناء رفعها عينيها إليه بتحدٍ:

ـ وهل بدأتم التفتيش شريف؟

تراقصت ابتسامة على وجهه المتجهم:

ـ سنفعل آنسة برايبون.. لكن أمهليني قليلاً.. أنت لست بحاجة إلى استخدام المخدر على الجواد.. أليس كذلك؟

ـ لا.. لست بحاجة.

ـ حسب معرفتك.. هل استخدم أحد المخدر عليه في الأيام القليلة الماضية؟

هزت رأسها نفياً، لكنها نظرت إلى كوبر ليؤكد كلامها.. الذي تمتم بحدة: لا.

بدا أن الشريف اكتفى بهذا الرد. لكنه سأل:

ـ أيمكن أن تقولي لي لماذا تتركين عملك فجأة دون سابق إنذار، وتخططين للرحيل اليوم آنسة برايبون؟

تحول سهم التململ الصغير الذي أحست به بسرعة إلى جرس إنذار.. ونظرت إلى تعبير وجه الشريف الذي ينتظر الرد، دون أن تشعر بالارتياح حين ابتسم مشجعاً.

قال: مهلك لحظة.

فتح سترته الرسمية ليفتش في جيب قميصه. أخرج بعض الصور منها، وأعطاها إياها قائلاً:

ـ أنظري إلى هذه.. هل لأحد من هؤلاء الرجال دخل في إسراعك بالرحيل؟

ارتجفت يد إيريس وهي تنظر إلى الصورة الأولى.. كانت تعي أن كوبر ينظر إليها وهي تتطلع إلى وجه بلاك رايدر.. واشتد ضغطها على شفتيها وهي تنتقل لتنظر إلى بقية الصور. أحد أصحاب هذه الصور كان معه قرب مخزن الغلال في اليوم السابق.

أعادت الصور، وتمتمت بنعم منخفضة. انتابها الدوار لأن الشريف يعرف، وحاولت التفكير بسرعة.

ـ كيف عرفت؟

أعاد الشريف الصور إلى جيبه.

ـ كنت أراقبهم منذ مدة.. قال لي الكاتب في المخزن إنهم اقتربوا منك بعد ظهر الأمس.

تصلب كوبر الواقف إلى جانبها لكنه لم يقل شيئاً، فتفرست إيريس بوجه الشريف الذي استقر عليه نوع من الجمود المهني، وأحست بشيء يسقط في أسفل معدتها.

سألت بحذر:

ـ إذا كنت تبقيهم تحت المراقبة، فهل هم.. جزء.. من تحقيق ما؟

ضاقت نظرة الشريف ترقباً.

ـ أنت متوترة جداً آنسة برايبون.. أليس كذلك؟

خزت دموع اليأس عينيها بحدة جعلتها تشيح بنظرها. وخرجت أنفاسها مع موجة من التوتر العاطفي.

قالت تتحداه بمرارة: وما رأيك؟

ـ رأيي أنك تحت تأثير ضغط كبير، آنسة برايبون.. ولا أعتقد أن السجن شيء تختارينه مرة أخرى.

لم تستطع احتواء العداء:

ـ وهل هذا تهديد؟

ـ ليس تهديداً آنسة برايبون.. مجرد تقرير أمر واقع.. أظنك خائفة جداً من التورط في شيء قد يصل بك إلى السجن ثانية بحيث قد تفعلين أي شيء لتجنب الأمر، بما فيه ترك العمل مع برتسوم دون إنذار مسبق، والهرب من هنا.. وإذا كان هناك أحد في نطاق سلطتي أستطيع الاعتماد عليه ليسير في الدرب القويم، فهو أنت.

صدمتها كلمات الشريف المفاجئة.. فارتبكت ولم تستطع إخفاء تشوشها.

تابع:

ـ أنت لست مشبوهة في سرقة الجواد.. في قراءة لتحليل المختبر لحقنة مكسورة وجدناها، أعتقد أن أحداً استخدمها لتخدير الجواد والكلاب لإخراجه من هنا.. وحسب ما فهمت لست بحاجة للمخدر لو كان لك أي دخل بالموضوع. بالرغم من إدانتك السابقة، لست مضطراً إلا لطرح بضعة أسئلة ثم أتركك تتابعين عملك. وبالطبع، لا أريد منك مغادرة المقاطعة إلى أن أنهي التحقيقات.

صمت قليلاً ونظر إلى كوبر:

ـ لا أعتقد أن لبرتسوم اعتراض على بقائك هنا وقتاً أطول.

كانت الابتسامة التي ظهرت فوق فم الشريف نوعاً من الرسالة لكوبر.

نظرت إيريس إلى كوبر، بينما كانت لا تزال مشوشة بما قاله الشريف.. كونه لم يعتبرها مشبوهة في سرقة بلاكي كان أمراً لا يزال يذهلها، ولم تستطع فهمه تماماً.

كان كوبر ينظر إليها، ومزيج من التشدد والارتياح الحذر باد في عينيه السوداوين.

ـ لم يكن تركها للعمل فكرتي أساساً، لكنني أرغب أن أسمع ما حدث في البلدة، الأمر الذي تسبب بكل ذلك.

قال الشريف:

ـ وأنا كذلك. لكن ربما ستشعر بارتياح أكثر وهي تتكلم بينما نتناول فنجاناً ساخناً من القهوة في المنزل.

ترك الثلاثة الاسطبل واتجهوا نحو المنزل. لم تتمكن إيريس من الاسترخاء.. كانت لا تزال متوترة جداً بالرغم من تصرف الشريف الودي. لدى وصولهم إلى المنزل، دخل كوبر وإيريس إلى المكتبة بينما قادت ستيفاني الشريف ليشاهد القطط.. تنبهت إيريس إلى أن الصداقة بينه وبين الطفلة، تعني من دون شك أنه أكثر من صديق للعائلة.. وساعدها هذا على الارتياح، لكن معدتها ظلت مضطربة.

أشار كوبر إليها بالجلوس في المقعد أمام منضدته، بينما جرّ المقعد الآخر إلى مكان قريب. كان صوت الضحك الصادر من غرفة ستيفاني يصل إليهما. جلس كوبر على حافة المنضدة ومد ساقيه الطويلتين أمامه، بينما طوى ذراعيه على صدره.

قال معترفاً:

ـ كنت قاسياً قليلاً معك.

أغمضت إيريس عينيها تحاول مقاومة الوقوع فريسة للطفه، وأكمل:

ـ كان يجب أن أفكر بإمكانية التخدير.

هزت رأسها ونظرت إليه ليكتشف ألمها:

ـ كان بالإمكان أن تحكم علي بالبراءة إلى أن تثبت الإدانة، لكن هل سنواجه مثل هذا الجدال في كل مرة تفقد فيها شيئاً من الماشية؟

تجهم وجهه:

ـ أنت تتوقعين الكثير إيريس.

ـ ليس هذا صحيحاً من وجهة نظري.

دخلت اليانور تحمل صينية القهوة. وتبعها الشريف وستيفاني، لكن ستيفاني وقفت بالباب:

ـ مرحباً إيريس.

ـ مرحباً ستيفاني . . كيف حال القطط؟

محت الابتسامة التي أعطتها للطفلة، التردد عن وجهها الصغير، وقالت:

ـ لقد فتحت أعينها. لكنني لا زلت غير قادرة على الاختيار. . هل تأتين معي لرؤيتها حين أعود من المدرسة؟

كانت اللهفة على وجه الفتاة لا تقاوم. . وبرغم ردة الفعل السلبية التي كانت تتوقعها من كوبر، قالت:

ـ بالتأكيد سأفعل.

جلس الشريف في المقعد الآخر بعد أن أخذ فنجان قهوته. خرجت اليانور بسرعة وكأنها عرفت أنهم على وشك تداول حديث هام. أقفلت الباب وراءها، فتذوق الشريف القهوة.

ـ ماذا حدث في البلدة أمس، آنسة برايبون؟

نظرت إيريس نحو كوبر غير مرتاحة لوجوده فجأة. .

تطلعت إلى الشريف، وروت تفاصيل رحلتها إلى مخزن العلف، وراحت تكرر الحديث الذي جرى بينها وبين بلاك كلمة كلمة. . كل التفاصيل كانت محفورة في ذاكرتها. . ثم سألت في النهاية:

ـ قلت إن الموظف في المخزن شاهد الرجال معي. . لكنني لم أره.

هز الشريف رأسه:

ـ كان موجوداً هناك.

قال كوبر بصوت أجش:

ـ هكذا إذن حدثت لك الكدمة.

أومأت بالإيجاب، لكنها لم تنظر إليه. . فأكمل كوبر:

ـ إذن كان سمارتي سلمون يعمل عندي وهو جاسوس لرايدر!

وأخبر الشريف باختصار كيف هاجم سلمون إيريس، وأنه طرده ورماه في مقاطعة كولورادو.

هز الشريف كتفيه دونما اكتراث:

ـ بالإمكان اعتقاله بسهولة بعد وضع الثلاثة الآخرين وراء القضبان. . هل تظنين أن سرقة الجواد هو ما كان رايدر يعنيه ليجعلك تدين مذنبة؟

هزت إيريس رأسها:

ـ لقد هددني بفعل شيء يغير رأيي حول مساعدته وأظنه أخذ الجواد ليبتزني.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أظنه سيهدد بإساءة معاملة الجواد ما لم أساعده، فهو يعرف أنه جواد مميز بالنسبة إليّ وأعتقد أنه إذا كان بلاكي قد تسبب له بالكثير من المتاعب، فمن السهل أن يدمره. . هذا إذا لم يفعل ذلك حتى الآن.

ساد صمت ثقيل في الغرفة، ارتشف الشريف القهوة مفكراً بكل ما أخبرته به، أخيراً أرجع رأسه إلى الوراء لينظر إليها.

ـ قلت إن رايدر صرح لك بشيء. . قال: كل ما عليك هو أن تعرفي ما حدث من قبل. . ثم قال شيئاً حول أصدقائك وجيرانك الذين حكموا أنك مذنبة. ما الذي كان يعنيه بقوله هذا؟

صدمها سؤاله غير المتوقع، وتململ كوبر، فنظرت إليه بسرعة لتلاحظ النظرة المتجهمة التي ينظر بها إليها. . وكرر الشريف السؤال:

ـ ما الذي كان يعنيه بهذا إيريس؟

ـ لا أحد. .

وصمتت، تكاد تختنق بالمشاعر التي تصاعدت داخلها قبل أن تتمكن من المتابعة:

ـ إنها قصة قديمة، ومجنونة.

أرادت أن يعرف كوبر القصة، لكن برغم كون الفرصة متاحة الآن، فإن تصديق كوبر لها أو الشريف كان يبدو أمراً مستحيلاً.

ابتسم الشريف مشجعاً:

ـ أنا أعتبر نفسي رجلاً منفتحاً إيريس، إضافة إلى هذا. . .

وقفت إيريس، ثم أخذت تتمشى وسط الغرفة بقلق ثم ووقفت خلف

مقعدها، ولم يبدُ على الشريف الاضطراب لحركتها فكرر:

ـ إضافة إلى ذلك.. لقد بحثت في ملفك حين عرفت أنك تتجهين إلى منطقة سيطرتي.

هذا التصريح جذب اهتمامها الكامل واهتمام كوبر. وتبادل الرجلان النظرات.

قالت بمرارة:

ـ إذن.. أنت تعرف.

هز الشريف كتفيه:

ـ لكنني لم أسمع القصة منك.. ويبدو أن برتسوم يكاد يموت شوقاً ليسمعها.. هيا.. تابعي.

صمتت إيريس، فحثها الشريف على الكلام مما زاد من توترها، فالتفتت إليه.

ببطء بدأت تروي القصة التي استقبلها رجال القانون والمحكمة بالتكذيب منذ سنتين ونصف.. أخبرتهم عن المشاكل المالية التي عانت منها واختفاء بلاك إلى وقت متأخر ليلاً، وكيف أن هذا الأمر قد أثار ريبتها.. ووصلت إلى ذكر لحاقها به تلك الليلة حيث اكتشفها فدبر أمر وصول شريف المقاطعة ليقبض عليها بالجرم المشهود. ما هي إلا لحظات حتى اضطربت.. كانت تنوي رواية كل شيء بهدوء، دون إظهار أي انفعال.. لكنها اضطرت للتوقف والتنفس بعمق قبل أن تتابع.. وترددت وقتاً أطول حين نقلت نظرها من الشريف إلى كوبر، ثم أشاحت بوجهها عنه.

ـ أسقط الشريف كارتر من حسابه فكرة أن يكون بلاك على علاقة بالسرقات.. وتوجهت تحقيقاته إلى مراجعة دفاتر الحسابات والفواتير المستحقة التي كانت تشير إلى دخل ضخم بالآلاف من سرقة الماشية. ولكون اسمي وحيداً على هذه الأوراق، فقد استخدمها الشريف دليلاً ضدي مفضلاً عدم ملاحقة بلاك.

أخذ الشريف روبي يستوجبها، فاستدارت إيريس لتجلس مجدداً..

وبالكاد أجابت عن آخر سؤال للشريف، حتى غمرتها العاطفة وأجبرتها على الصمت.

انتظرها الشريف تعاطفاً مع كربها، محاولاً إعطاءها فرصة لاستعادة وعيها. وقف كوبر ليملأ فنجان قهوتها، ثم أعطاها إياه فأكملت مصممة:

ـ كانت خطتي أن أجد بلاك وأتأكد من ضبطه متورطاً.. وبالطبع، كنت آمل كذلك أن يعترف فيبرئني.

استندت إلى الخلف يائسة، وارتشفت قليلاً من القهوة.. وكسر الشريف الصمت أخيراً:

ـ حسن جداً إيريس.. لا أستطيع أن أعدك أن أجبر رايدر على الاعتراف.. لكن، إذا كنت مستعدة لمساعدتي، أظن أنك سترينه معتقلاً خلف القضبان وذلك لبضع سنوات قادمة.

أحست بالسقام لأن الشريف لم يشر أنه صدق قصتها، لكنها ركزت على فكرة رؤية بلاك في السجن:

ـ كيف؟

ـ بأن تجعليه يصدق أن ابتزازه ناجح.

اعترض كوبر فوراً:

ـ لا أريدها أن تكون قريبة أبداً من ذلك النذل.

نظر روبي إلى كوبر، وارتفع حاجباه الأسودان وتلاعبت ابتسامة على شفتيه.

ـ من حق إيريس اتخاذ قرارها بنفسها برتسوم.

ـ لا يعجبني هذا.

ـ ولا يعجبني أنا كذلك.. لكنها قد تتمكن من مساعدتي على كشف الكثير مما أجهله حول المواشي التي ستسرق.

بدا على كوبر تفهمه للفكرة، ثم تمتم لاعناً.. وظهرت ابتسامة على فمه وهو يهز رأسه.

ـ اللعنة على كل شيء روبي. لقد خسرت مواشٍ عن طريق السرقة أكثر

من أي مزارع آخر في المقاطعة.

اتسعت ابتسامة الشريف:

ـ هذا لأنك تمتلك مواش أكثر من أي مزارع آخر في المقاطعة.. أضف إلى هذا، أنه كان لرايدر جاسوس هنا، ويريد إيريس أن تساعده عن طريق ابتزازها، فأنا أخشى أن تكون مواشيك هي التي ستستخدمها كطعم.

تحولت بسمة كوبر إلى عدم موافقة:

ـ بإمكانك استخدام المواشي كطعم، لكنني لا أريد توريط إيريس.

حدقت إيريس بكوبر، وتفاجأت لقوله. هل هو مهتم إلى هذا الحد بسلامتها؟ واشتعل أمل ضعيف في نفسها، لكنها سحقته. الآن وقد سمعا قصتها، قد يعتقد كوبر أن روبي لن يصر بعد الآن على بقائها حتى انتهاء التحقيق. وربما سيفضل أن تنفذ خطتها بالرحيل.

لكن ماذا سيحل بالجواد إذا لم يلق القبض على بلاك في وقت قريب؟ حتى ولو أعاد روبي النظر في قراره في عدم تركها المقاطعة، ماذا سيفعل بلاك بالجواد إذا لم تكن هنا ليبتزها؟

انحنى الشريف ليضع فنجانه فوق الطاولة:

ـ ما رأيك إيريس؟ هل ترغبين في مساعدتي على إنهاء نشاط رايدر؟

ترددت ونظرت إلى كوبر، فخرقت عيناه السوداوان عينيها.. لكن لم يكن هناك أي شيء في قسماته القاسية يدل على أي سبب وراء عدم موافقته البارزة.

أبعدت نظرها عنه وأطلقت نفساً بطيئاً.

ـ أنا مستعدة للقيام بما يلزم.

ابتسم الشريف.. لكن أسارير كوبر حطمت قلبها.

* * *

١٠ ـ لو بقيت...

تقرر فيما بعد ذلك الصباح أن تذهب إيريس بالسيارة إلى «ردهورس». وأعطاها كوبر لائحة بأشياء تافهة لشرائها من مخزن المعدات، وتم التخطيط للرحلة بحيث تصل قبل الظهر تماماً، فيكون بذلك لها عذر مقبول لتناول الغداء في المقهى.

استطالت جلسة إيريس لشرب القهوة، قبل أن تغادر المقهى. وما إن سارت بضع خطوات فوق الرصيف حتى سمعت صفيراً منخفضاً. وقدّرت الاتجاه بالضبط، وتابعت السير، لتستدير في زقاق يبعد بايين عن المقهى.

كانت شاحنة بلاك الزرقاء متوقفة في منتصف الطريق، لكنها لم تكن على استعداد للتقدم حتى هذه المسافة.

زادت ضحكة بلاك المنتصرة من حدة غضبها، ولزمها كل ذرة من قدرتها على السيطرة لتمنع نفسها من إظهار غضبها، وسألت:

ـ أين الجواد؟

لم يزعج بلاك نفسه في إنكاره سرقة الجواد:

ـ والآن أختاه.. لا بد أنك عرفت أن الحصان ضمانة لي، وحافز لك، أضيفي إلى ذلك أن دايف لا يزال مجنوناً لأن ذلك الشيطان الأسود قد عضه وانتزع قطعة من لحمه. لكنني تمكنت من لجم غضبه بناءً على وعدك بمساعدتنا.

قالت:

ـ أريد أن أراه أولاً.

ـ هذه فكرة غبية إيريس، أعتقد أنك حزينة جداً ولا تفكرين جيداً.

ضاقت عيناه السوداوان بارتياب:

ـ لا بد أنك كنت ناجحة مع الشريف روبي.

تظاهرت بالقلق لذكر الشريف:

ـ بالكاد، ولولا الحقنة المكسورة..

وتركت صوتها يختفي بطريقة لها مغزى.. اتسعت ضحكة بلاك.

ـ كان يجب أن أترك شيئاً يبعد الشبهات عنك.. فلن أستطيع الاستفادة منك إذا عدت إلى السجن.

شيء ما أجفلها في طريقة كلامه المتشدق المتكاسل. عرفت فجأة أن خططه لها تشمل رحلة عودتها إلى السجن بعد أن ينتهي منها، فشدت على أسنانها لكبت الغضب الذي أحست به.

تلاشت ابتسامته:

ـ حسن جداً الآن.. حان وقت العمل.

أخرج من جيب قميصه قطعة ورق، ومدت إيريس يدها لتأخذها، لكنه أرجعها إلى الوراء:

ـ احفظيها عن ظهر قلب.

نظرت للحظات إلى رقم الهاتف المكتوب على الورقة، ثم رفعت نظرها إليه.

ـ أخبريني مساء الغد، أي جزء من مزرعة برتسوم يحتوي نوعية جيدة من المواشي.. ومن الأفضل أن لا ألتقي بأي من عامل المزرعة.. رود، ذلك الفتى ذو الشعر الرملي الذي كان معي بالأمس، قناص ماهر.

كان التحذير في عينيه شديد الوضوح.

تقدم بلاك خطوة جعلته على مرمى اليد من ملامستها.. وتمكنت إيريس من لجم خوفها حين رفع قبضته وداعب ذقنها بخشونة.

ـ إذا حدث شيء خاطىء.. أو أخبر أحدهم الشريف.. حتى ولو فكرت أنك ستوقعين بي، سأرسل لك ما سيتبقى من الجواد في علبة كرتون.

ضربت إيريس يده لتبعدها:

ـ وكيف أعرف أنك لم تدمره بعد؟

ضحك منها، راض بانزعاجها:

ـ سأرسل لك صورة له بالبريد.

ثم استدار ليبتعد دونما استعجال إلى شاحنته. وبقيت حيث هي تغلي غضباً وإحباطاً بينما راحت تراقبه يفتح باب سيارته، وأجبرت نفسها على تحمل الابتسامة المغرورة التي ودعها بها قبل تركه الزقاق واتجاهه إلى شاحنة المزرعة.

أدارت الشاحنة الصغيرة، وانطلقت. لم تستغرق رحلة العودة إلى المزرعة وقتاً طويلاً. كان اندفاعها لتتجاوز الطريق إلى المزرعة قوياً، لكنها خففت سرعة المركبة، وتوجهت بها نحو الطريق المرصوفة بالحصى.

قام كوبر من المكان الذي كان يراقب الطريق منه خلف نافذة المنزل حين شاهد البيك آب على قمة المرتفع قادمة من الطريق العام.. كان متوتراً كحيوان محشور في زاوية ويشعر بالإحباط. لقد قال أشياء خشنة قاسية لإيريس.. ليس هذا الصباح فقط، بل في أوقات أخرى كذلك.. الصدع الذي تسبب به تلك الليلة حول عدم امتلاكها الحق في مقايضة أي شيء بخاتم ومراسم، كان يصفعه.

عندما بدأت تقص على روبي قصتها، عرف أنها تقول الحقيقة. وفي حال ساوره الشك بسبب ما عرفه عنها قبل وصولها إلى المقاطعة، فإن ما قاله الشريف عنها جعله يصدق ادعاءها بالبراءة، واعترف له روبي فيما بعد أنه دفعها لتروي قصتها أمامه لأنه أدرك من حرارة نظرات كوبر، أنه إما أن يكون جاهلاً الحقيقة أو أنه لم يكن يصدقها.

تذكر كوبر أنها سألته في أول يوم وصلت فيه المزرعة، عما إذا كانت معرفته للحقيقة ستؤثر على قراره في استخدامها. لقد كان شديد العناد.. وفيما بعد، كانت أكثر تكبراً من أن تعرض عليه مجدداً سماع قصتها، إلى أن أخبرت روبي بها.

كان يجب أن يعطيها دليلاً ما على أنه صدقها. وحين لم يفعل، سارع روبي إلى شرح خطته لتجنيد تعاون إيريس معه. ولم يكن كوبر بحاجة لمن يقول له إنه بغل عنيد، فقد توصل إلى هذا الاستنتاج بنفسه.

كان شعوره سيئاً وهو يراقب إيريس تدخل عبر باب الشرفة، وتتردد قليلاً في المطبخ. لم يكن هناك شك في وجود الجيشان العاطفي تحت الواجهة الهادئة التي تظهرها. كانت خطوط التوتر الرفيعة تحيط بشفتيها، ولونها أصبح باهتاً. أحس أنها تسير فوق سلم مشدود مرتفع من المشاعر، وأنه لا يلزمها أكثر من نفخة هواء لتقع.

أحست إيريس بقوة النظرة التي التقت نظرتها، ووقف كوبر في الجهة الأخرى للمطبخ وقدماه منفرجتان. كانت الليونة الرجولية الجميلة فيه ترسل موجات شوق في عروقها.. وكانت مشاعرها ثائرة واندفاعها لترمي بنفسها على جسمه القوي، غامراً.

هربت عيناها من مظهره، وانخفضت رموشها لتخفي لسع دموع غير متوقعة وهي تخلع قبعتها وتمرر أصابع مرتجفة في شعرها.. وقالت:

ـ أريد الاتصال بروبي.

ـ تبدين لي وكأنك بحاجة إلى شراب منعش.

أشارت بالنفي.. وأحست بالتوتر أكثر من قبل وهي تسير صوب الهاتف المعلق على الجدار قرب كوبر، وتطلب رقم هاتف مكتب الشريف بسرعة.

تمتم بصوت منخفض:

ـ بإمكانك استخدام الهاتف في مكتبتي إذا أردت بعض الخلوة.

ـ لا.. شكراً.

تقدم كوبر إلى البراد ليخرج منه إبريقاً كبيراً.. وهو يصغي لإيريس تروي تفاصيل مقابلتها مع رايدر.

عرف مما قالته للشريف أن اللقاء سار كما خطط له، لكن كوبر لم ينخدع بصوتها الهادىء.

واستند إلى رف المغسلة، مقطباً جبينه للطريقة التي كانت تفرك فيها جبهتها بأصابعها في إيماءة عرف أنها دليل على الاضطراب. بدأت تذرع المكان قبل أن تتوقف وتشد قبضتها لكبح اندفاعها، وبدا أن الجو حولها يتذبذب بالغضب. أحس كوبر مرة أخرى بالقبضة الشرسة التي تفرضها على أعصابها.

كانت تقول:

ـ ذكرت لي أن بلاك ورجاله يقيمون في مزرعة في مكان ما.. أين؟

ابتسم كوبر وهو يدرك فوراً سبب سؤالها. فهو كذلك حاول الحصول على بعض المعلومات من الشريف.. لم يكن واثقاً أن الأنذال سيعاملون الجواد بطريقة إنسانية.. وكذلك إيريس على ما يبدو.

قالت:

ـ أريد أن أعرف.. لكن..

وصمتت طويلاً ثم تصلبت وهزت رأسها.

ـ إذا كان الجواد هناك، أريد أن أخرجه. وعلى بلاك أن يترك المكان في وقت ما.. ولن يعرف أنني كنت هناك. لقد حطم حظيرته وهرب منذ بضعة أسابيع، ولا بد أنه الآن يرفس كالجحيم في المكان الذي يضعونه فيه وسيبدو الأمر وكأنه هرب بنفسه.

قاطعها الشريف مرة أخرى كما يبدو.. ثم قالت:

ـ أنا لا أهتم البتة روبي.. أريد إخراج الجواد قبل..

وضربت الأرض بقدمها إحباطاً، ثم نظرت إلى السقف. راحت عيناها تبرقان بشكل مريب، وضحكت دون مرح مما كان يقوله روبي لها، ثم قالت بصوت منخفض مرير:

ـ هذه هي المشكلة.. أنا لا أثق بأحد منكم.

وكأنها تذكرت فجأة وجود كوبر قريباً منها، فالتفتت عيناها الزرقاوان نحوه، ثم بعيداً. لكن ليس قبل أن يستلم الرسالة بأن قولها يشمله. انحنت كتفاها قليلاً مع استمرار الشريف بالكلام، وهزت رأسها متعبة وراحت

تقول بقلق:

ـ لن أفعل شيئاً.. لن أفعل شيئاً يفسد الأمر.. وأرجو أن لا تفعل أنت شيئاً كذلك.

كان يمكن لكوبر أن يجد سلوة في طيشها لولا أنه أحس بالخوف. تجربتها السابقة مع القانون تضمن دون أي شك ارتيابها وعداءها.

راقبها متجهماً وهي تعيد السماعة إلى مكانها، ولم يعرف ماذا يقول لها تماماً، لن يكون الاعتذار الذي تستحقه سهلاً عليه.. وقد لا يكون الآن هو الوقت المناسب، إذا ما كانت مشاعرها على استعداد للانفجار كما يحس بها.. إنها فخورة جداً وعنيدة أكثر من أن تتقبل ما يريد قوله. ثم أن ترتمي بامتنان بين ذراعيه، يا للسماء! لا! لن تفعل ذلك.. بل سيكون محظوظاً إذا لم تقطع له رأسه.

نظرت إيريس إليه، مترددة في أن تلتقي نظرته، وهي تدس يديها في جيبي سترتها.

ـ هل تعرف روبي جيداً؟

هز رأسه:

ـ لقد تربينا معاً.

ثم سألت عن الشريف الذي كانت بحاجة ماسة لمعرفة بعض الأخبار عنه:

ـ هل تثق به؟

ـ إنه ليس مثل ذلك الشريف البغل الذي كان في مقاطعتك، إذا كان هذا ما تسألين عنه.

قاومت إيريس لإخفاء دهشتها.. في وقت سابق لم يعطها لا هو ولا الشريف، أي دليل واضح عما إذا كانا قد صدقا قصتها أم لا. وهذا ما أغضبها.. ولأنه لم يفعل ذلك، ولأنه الآن يلمح إلى رأيه بها، غضبت أكثر. شربت ما تبقى من شرابها وكأنها تريد إخفاء هذا الغضب.. وبادرته بنظرة حذرة، أنها تريد منه أن يصدقها، لكن تردده جعلها تخاف ما يظنه بها حقاً.

والطريقة الوحيدة لتخليص نفسها من المزيد من الألم، هي أن تقول الكلمات بنفسها بسخرية:

ـ أنت لم تصدق تلك الرواية التي رويتها للشريف.. أليس كذلك؟

لم يعد باستطاعتها السيطرة أكثر على مشاعرها أثناء محادثتها له، لتجد فجأة أن دموعها تكاد تخونها بسبب عدم قدرتها على تحمل المزيد. وشعرت بشيء ما يدفعها للهرب.

حافظت على رباطة جأشها بصعوبة الأمر الذي جعلها ترتجف، ثم مرت به لتضع كوبها الفارغ على رف المغسلة بحدة، وقالت:

ـ من الممكن أن يكون روبي قد صدق قصتي.. لكنني أعتقد أنك تعرفني أكثر الآن، ولن تنخدع.

جمد وجهه كالصخر وهو ينظر إليها، ولم تستطع فهم أي شيء من تعابير وجهه.

أكملت:

ـ أضف إلى ذلك، أنك بالرغم من عرضك عليّ أوقاتاً «مجنونة» فأنت لم تفقد الإدراك من أنت ومن أكون أنا.

تسمر كوبر دون حراك، محاولاً استيعاب كلماتها المريرة بهدوء. ولأنها تدرك أكثر من أي وقت مضى أنها قريبة من الانهيار، تهورت بالاستسلام إلى الهرب، حيث استدارت، لكن الغرفة تهاوت حولها بشكل أخافها. أسرع كوبر ليمسك ذراعها بقبضة لطيفة، لكنها ابتعدت عنه واتجهت بعناد نحو باب الشرفة.

ـ إيريس...

أثار فيها صوته المترجي صلابة وتماسكاً، كان هناك معاني كثيرة في الطريقة التي لفظ فيها اسمها. حين وصلت الباب توقفت ونظرت نحوه.

ـ أنا المرأة نفسها التي كنتها دائماً برتسوم، ما قلته للشريف روبي لا يغير شيئاً.

أدارت القفل وخرجت ممتنة لخلاصها.

كانت تنوي التوجه إلى الحظائر لتجد شيئاً تفعله، آملة أن يخفف ذلك من توترها. لكن بدلاً من ذلك، انتهى بها الأمر في غرفتها في سقيفة العمال.. وما أن أقفلت بابها، وخلعت ملابسها، حتى اندست بين الأغطية الباردة وأغمضت عينيها ثم أخذ منها التعب مأخذه وأمن لها نوماً طويلاً عميقاً.

لم تسمع صوت مفتاح في قفل الباب، ولم تشعر بأن كوبر تفقدها في وقت ما قبل منتصف الليل.. بعد ذلك، أمضى الساعات في مقعد في غرفتها.. وقبل الفجر مباشرة، تسلل دون صوت إلى الخارج، وعاد إلى المنزل.

استيقظت إيريس في الصباح التالي مرتاحة وقادرة على السيطرة على مشاعرها. تناولت جرعة من الأسبرين لتقضي على أوائل صداع انتابها، مفترضة أنه نتيجة النوم المبكر، وما إن تناولت طعام الفطور في مطبخ العمال، حتى ذهبت إلى الاسطبل لتطعم الجياد ولتنظف حظائرها.. حين أنهت عملها هناك، خرجت إلى أحدى الزرائب لتعطي بعض المهور الجديدة تمارينها.

كان الوقت مبكراً بعد الظهر حين حضركوبر إلى الاسطبل. كانت إيريس قد انتهت من وضع رباط حزام جديد على السرج الذي استخدمته ذلك الصباح، ودخلت المخزن لتضعه مكانه حين دخل كوبر.

عاد التوتر الغائب عنها ذلك اليوم، بقوة كاملة عندما رأت تعابير وجه كوبر المتجهمة.. وفوق ذلك، كانت لا تزال مشوشة الفكر بسبب ما جرى في المطبخ بعد ظهر اليوم السابق. حاولت أن لا تفكر فيما كان يحاول قوله حين تحدث عن الشريف «البغل» الذي كان في مقاطعتها لكنها تتذكر ما يكفي حول ما قالته هي، لتعرف أنها أعطته انطباعاً واضحاً في أنها ترفض إمكانية تغيير رأيه، أو الحاجة إلى ذلك، واستولى عليها إحساس غريب.. وأستشفت من الطريقة الحذرة المتباعدة التي كان ينظر فيها إليها، أنه يشعر كذلك بالارتباك.

سأل:

ـ هل أنهيت عملك هنا؟

أومأت برأسها إيجاباً، ثم تحركت آلياً نحو الباب لتتجنب كونها محتجزة في مكان صغير، وتنحى لها كوبر عن الطريق قائلاً:

ـ فكرت أن نركب معاً إلى النقطة التي ستوجهين رايدر إليها.

تمتمت بصوت منخفض:

ـ حسن جداً.

أسرجا جوادين، وانطلقا. زاد الصمت بينهما من توتر أعصابها.. كان الإحساس بشمس الربيع رائعاً. كانت الأرض تجف بسرعة، فركض الجوادان جنباً إلى جنب إلى أن ابتعدا عن مباني المزرعة والزرائب وانطلقا في جري سريع.

اختلست إيريس نظرة سريعة إلى الطريقة السهلة التي يقود فيها كوبر جواده. والتقت نظرتها بنظرته، فتبسم قليلاً. قرأت التحدي في عينيه بوضوح، وكان ردها عبر حركة بسيطة من جسمها لينطلق الجواد الأحمر القاتم إلى الأمام ينهب الأرض، وجواد كوبر الرمادي إلى جانبه.

تسابق الجوادان على طول مرتفعات المراعي الممتدة لأميال أمامهما. وأحست إيريس باندفاع الأحمر وانطلاقه، وحركة عضلاته وهو يندفع ببطء ليسبق الرمادي. تعاظم في نفسها إحساس بالمرح، وبأنها حية مع كفاح الأحمر ليكون في المقدمة.. لم تعد نصف حية، كما كانت خلال تلك الأشهر القاتمة في السجن، واشتعلت في روحها شرارة كانت على وشك أن تنطفىء..

بالكاد سمعت صيحة كوبر وسط ضجيج السعادة.. لكن الغريزة التي طالما أبقتها تعي وجوده، جعلتها تشد لجام جوادها. ثم خففا السرعة بالتدريج ليسير الجوادان معاً، أدركت إيريس إبان ظهور قطيع من الماشية يقرب من الأربعين، أنهما وصلا المكان المقصود.

أدارت وجهها المبتسم نحو كوبر، دون أن تعي أن وهج السعادة على

وجهها كان له تأثير قوي عليه:

ـ هل هذا هو القطيع؟

عرف كوبر أنه لم يشاهد من قبل امرأة بهذا الجمال في حياته. لقد جذبته إيريس منذ وقعت عيناه عليها.. لكن رؤيته لها الآن، ومشاهدته التغير الذي حدث لها في ظرف دقائق، كان يمكن أن يجعله يركع على ركبتيه لو كان واقفاً. كان يبدو أن جسمها ينضح بالحياة وعيناها تلمعان بالإثارة، وخداها محمران بالفرح. لكن الابتسامة العريضة الخالية من الهموم على شفتيها، وغياب التوتر عنها، أخبره أن هذا كله جانب من إيريس برايبون لا يشاهده الكثير من الناس.. وكونه أحد المحظوظين القلة، جعله يحس بالتواضع والندم في آن واحد.

قطبت إيريس حاجبيها وتلاشت ابتسامتها:

ـ كوبر؟

هز رأسه وأجبر عينيه على الاتجاه نحو الوادي حيث ترعى الماشية التي حضرها للفخ.

ـ هذا هو القطيع.

وأشار إلى الطريق العام الظاهرة عبر قطعة أرض إلى الجنوب.

ـ الشيء الوحيد الذي يجعل الأمر أكثر سهولة هو تحميلها في شاحنات وتحضيرها له.

تحرك الجواد الأحمر، وضغط ركبتها إلى ركبة كوبر، فمد يده ليمسك اليد النحيلة:

ـ قلقة؟

تصلبت شفتاها وهزت رأسها إيجاباً. استجابت لضغط يده بضغط مماثل، الأمر الذي أدهشه.

لم تستطع إيريس منع الهواجس من إفساد سعادتها، حاولت أن لا تفكر بالجواد المسروق فهي تعرف أن القلق لن يفيد، لكن خوفها من أن تفشل خطة الشريف كان قوياً.

ـ إيريس؟

كان القلق في عيني كوبر لا يقاوم، ووجدت نفسها فجأة تسرّ إليه:

ـ أنا خائفة.

اشتدت قبضته على يدها:

ـ لا داعي للخوف طفلتي.. روبي يعرف ما سيفعل. ولن يكون هناك مجال لأن تتعرضي لخطر العودة إلى السجن.

سحبت يدها من يده، ثم بدأت تعبث بالرسن وعيناها منخفضتان.

ـ هل هناك شيء آخر يجب أن أراه؟

ـ ليس هناك شيء لنراه هنا.. لكن يمكن أن نتابع ركوبنا قليلاً بعد.

رفعت نظرها إليه لتلتقط الاهتمام في عينيه:

ـ سأحب ذلك.

حثت الجواد الأحمر ليجري، فلحق به الرمادي.. لكن الجذل الذي أحست به قبل قليل لم يعد موجوداً، رغم أن هواء الربيع ومنظر أراضي المزرعة الممتدة قد هدءا من اضطرابها.. ولم يتكلم أي منهما وهما يبتعدان عن أطراف المزرعة.

كان هناك صف طويل من شجر الحور أمامها وسارا في خط متواز مع الشجر إلى أن وصلا إلى مكان اتسع فيه الجدول، فأدار كوبر جواده نحو المكان، ومر عبر فسحة بين الأشجار إلى الضفة المليئة بالحصى. ولحقت به إيريس، ثم ترجلا ونادا جواديهما إلى الماء، فراحا ينتظرانهما حتى ينتهيا من شربهما.

حين ارتوى الرمادي، قاده كوبر إلى مكان مليء بالعشب ليرعى بعد أن أرخى أربطة السرج عنه، وفعلت إيريس الشيء عينه مع جوادها.. ثم تقدمت لتقف قرب جذع شجرة مكسور قرب الأشجار.

كان صوت جريان ماء الجدول السريع الذي زاد ذوبان الثلج من عرضه عدة أقدام يتناسب مع زقزقة العصافير على غصون الأشجار فوق الرؤوس. إنه مكان هادىء، والخلوة التي توفرها الأشجار بدت وكأنها تزيد من

عزلته.

دست إيريس يديها في جيبيها وهي تشعر أن كوبر اختار عمداً هذا المكان للتوقف. رغم كونه واقفاً في مكان ما خلفها، إلا أنها كانت تشعر أنه يراقبها. كان هناك نوع من الانتظار في الصمت بينهما.. تردد قوي مثله مثل المواجهة التي تعرف أنها قادمة.

كانت قد تجاوزت مرحلة أن يقول لها كوبر إنه يصدق ما قالته للشريف. كان لطيفاً معها قبل قليل، لكن هذا لا يعني أن هناك اعتذاراً قادماً.

سمعت وقع حذائه وهو يتقدم نحوها:

ـ إيريس؟ أنا مدين لك باعتذار كبير..

وقعت الكلمات في رأسها كالرعد، ولم تتحرك.. وتصاعد الأمل والمشاعر المجنونة في نفسها، وأحست بالدموع تلسع مؤخرة عينيها وهي تقاومها محاولة السيطرة عليها.

استجمعت كل ذرة دفاع وسألت:

ـ من أجل ماذا؟

لقد عرفها كوبر منذ أسابيع قليلة.. وكان مقتنعاً أنها تحمل أسوأ الصفات طوال الوقت.. بالرغم مما أحست أنه يحاول قوله، كان كثيراً عليها أن تأمل منه تصديق قصتها.

بدا وكأنه يجد صعوبة في تشكيل كلامه:

ـ سألتني يوم جئت إلى هنا، إذا كانت معرفة الحقيقة سيكون لها فارق في إعطائك العمل أم لا، ولا أستطيع القول إن الأمر كان له فارق يومها.. لكن، بعد وجودك كل هذه الأسابيع، أعتقد أنني أصبحت أعرف متى تكذبين ومتى تقولين الحقيقة.

رفعت بصرها لتنظر إلى الأشجار دون أن تراها، ورفرفت عيناها بسرعة لتخفف من لسعة الدموع فيهما... وقالت:

ـ إذن أنت تعتبر نفسك حكماً جيداً على الأخلاق.. والشخصيات..

هه؟

ـ جيد بما يكفي لأعرف أنك لا تريدين سماعي وأنا أقول إنني آسف، لأنك متكبرة أكثر من فعل شيء ضعيف مثل البكاء. جيد بما يكفي، لأعرف أنك لا تزالين غاضبة لما قلته عن الخاتم والمراسم.. وأنا واثق جداً أنني جيد بما يكفي في الحكم على الشخصيات لأعرف أن قلب المرأة الرومانسية فيك، يتوقع مني أن أنظر إليك منذ اليوم الأول، لأرى أنك لست مجرمة.

سمعته يسير خلفها:

ـ لكن الحقيقة أنني اقترفت أخطاء كثيرة بحقك وعرفت ذلك بالتأكيد، حين أخبرت روبي قصة رايدر واعتقالك، فجأة، كل ما حاولت أن تجعليني أعرفه عنك، أصبح له معنى.

وضع يديه الدافئتين على كتفيها، ثم أدارها ببطء نحوه. أخفضت إيريس رأسها، لكنه رفعه بأصابع لطيفة تحت ذقنها.

ـ أنا لا أعرف كيف أتقوم باعتذار جيد يجعل كل شيء سهلاً.. أو يصلح الأمور.. لكنني آسف، طفلتي.

هزت إيريس رأسها، لقد أرادت اعتذاره، وانتظرته، بيد أن اعتذاره المفاجيء، بدا دون أساس وغير ناضج.

قالت:

ـ ليس لديك سوى كلمتي حول ما حدث.. ولا دليل مسجل في أي مكان لدعم كلامي.

ونظرت إلى عينيه مباشرة:

ـ ولن يكون هناك أي دليل أبداً كوبر.. ألا ترى؟

ارتجف صوتها مع تفجر الدموع:

ـ لا يمكنك تصديق كلامي فقط.. بعد أن أنكره الجميع. يجب أن يكون هناك دليل، أو حين يحدث شيء في المرة القادمة.. وفي أي وقت تثور الشكوك فيه، سوف.. تغير رأيك مرة أخرى.

أخذت نفساً عميقاً مرتجفاً لتستعيد السيطرة على نفسها.

ـ اللعنة إيريس.. لقد تجاوزت الحاجة إلى دليل، أنت لست مجرمة أكثر مما أنا عليه.. وسماعي لقصتك أثبت لي ما كنت أحاول تجاهله عنك طوال الوقت، كانت مسألة وقت فقط قبل أن تتوقف إدانتك عن تشكيل فارق بالنسبة لي.. وكلما عرفتك أكثر كلما فقدت معناها.

هزت إيريس رأسها، وتبسمت:

ـ أجل برتسوم.. لم يكن لها معنى حين فقدت بلاكي.. كنت على استعداد لجعل الشريف يقرر احتجازي.

اسود وجهه إحباطاً وهو ينظر إليها:

ـ إذا كنت تذكرين جيداً، كل الظروف كانت تشير إليك.. ثم حين سألتك إذا كنت تعرفين شيئاً عن السرقة، اضطربت وبدوت مذنبة.. توقفي عن مقاومتي إيريس.

لم تستطع أن تبعد نظرها عن تعابير وجهه الكئيبة.. كان ندمه حقيقياً. فجأة تملكها الغيظ لمقاومتها محاولاته الاعتذار.

انخفضت نظرتها إلى صدره.

ـ أنا آسفة أيضاً.. الأمر فقط..

وخنقتها المشاعر.. فتبسمت مجبرة وهي ترتجف. واندست يداه حول خصرها فأكملت بصوت طفولي ناعم:

ـ عشت هناك طوال حياتي.. كنت الجيل الرابع لآل برايبون هناك...

وانهمرت الدموع التي لم تعد تستطيع كبتها على خديها المحمرين.

جذبها كوبر نحوه، ثم طواها بين ذراعيه ليكمل ما توقفت عن قوله:

ـ هكذا لم يعد لك ثقة هذه الأيام بأحد. إن عدم تقديم الناس الذين يعرفونك دعمهم لك جعلك تعتقدين أن كل الناس سينقلبون ضدك.

وكأن سماع هذا كان المحرك بالنسبة لها، فانفجرت في نحيب قوي، وأشاحت بوجهها عنه لتضغطه على قميصه، واشتدت ذراعاه حولها يحميها وتركها تبكي.

لم تستطع منع نفسها عن قبول الراحة التي يقدمها لها كوبر، فدست ذراعيها حول خصره وتعلقت به.. ولم تعرف كم أطالا الوقوف هكذا قبل أن تشعر بعاصفة الدموع تتراجع، وكان كوبر أكثر من قادر على المهمة وهو يمسك بها.. ويتمتم بكلمات لطيفة مهدئة.

أحست إيريس أنها أكثر استنزافاً من أن تشعر بالحرج لمعاملتها كوبر كحائط مبكى. تحركت لتشير إلى أنها انتهت، وابتسمت بخجل فتركها بما يكفي ليخرج منديلاً من جيبه ويعطيها إياه. استخدمته بسرعة لتجفف دموعها من عينيها وخديها. وتراجعت عنه لتدير ظهرها بارتباك وتنفخ في أنفها، لكنها ترددت في الاستدارة نحوه إلى أن أمسك ذراعها وأدارها.

قال بهدوء:

ـ سيجعلك هذا أفضل حالاً.

وخاطرت بنظرة إليه.. صدمتها وسامته الخشنة بقوة أكثر من قبل.. تسللت الطريقة الحنونة الناعمة التي كان يتوسلها للنظر إليها عبر آخر دفاعاتها.. إنها تحب هذا المزارع الخشن القاسي، وكانت تحبه منذ زمن بعيد. لا بد أنها وقعت في حبه منذ أول لحظة رأته فيها في مكتبه حين رفع نظره عن أوراقه وتطلع بنظرته القاسية إليها.

خشيت أن يكون ما تشعر به واضحاً على وجهها كما هو واضح في قلبها، فنظرت بعيداً، وقالت موافقة:

ـ أشعر أنني أفضل حالاً.

ثم مدت يدها لتلامس ذراعه: شكراً.

أمسكت يده يدها وبينما كانت تحاول سحبها جذبها إليه، فرفعت وجهها نحوه.. لم يكن هناك أي شوق مجنون في نظرتيهما. أحست بالسلوان الحنون يلامس روحها، وأغمضت عينيها تتمتع بالعناق.. ثم فتحتهما لتلتقي بسواد عينيه اللطيف.

ارتجفت إحدى زوايا فمه سخرية بالذات:

ـ من الأفضل أن نعود الآن إيريس.. قد تكونين الآن ضعيفة قليلاً لأن

تتخذي قراراً واضحاً.

كانت الإثارة الكسولة في عينيه مسمّرة منوّمة. ولم تستطع إبعاد نظرها عن الوعد الموجود فيهما:

ـ حين نجتمع، أنا وأنت، وأعرف أننا سنفعل، أريد أن أعرف أن قرارك واضح عما يعنيه ذلك لنا معاً.

لم يدهشها أن يقول كوبر كلاماً كهذا، لكن كلامه هبط بحدة على مشاعر امرأة شابة اعترفت لنفسها تواً أنها تحبه بعمق. كان يجب أن تكون ممتنة لأنه يهتم بها بما يكفي بحيث لا يستغل ضعفها.. لكن بالنسبة لإيريس، أوحت الكلمات التي اختارها حول إرادته أن تكون واضحة القرار حول ما يعنيه هذا لهما معاً، أنه لا يزال يرى التواصل الحميم بينهما شيئاً لا يعني أكثر من إرضاء الرغبة المشتركة، إنه لا يريدها أن تكون مخطئة في ذلك.

لامس الصقيع قلبها.. وتحركت متصلبة من بين ذراعيه متجهة إلى مكان الجوادين.

شاهد كوبر انسحابها العاطفي.. وقلق بشدة قبل أن يدرك أنه أغضبها. إنها امرأة قوية الشكيمة، وفخورة، وقد أحرجها الانهيار أمامه على الأرجح، ثم أن تسمعه يشير إلى أن حكمها العاطفي قد يكون مؤقتاً يمكن أن يكون قد أغضبها.

لحق بها صوب الجياد، واعتلى جواده بعد أن اعتلت جوادها. لاحظت نظرته المتفحصة أنها لم تعد تنظر إليه.. وعادا إلى المزرعة بصمت.. لكن، قبل وقت طويل من وصولهما، أحس كوبر أن أفضل طريقة للتعامل معها هي الانتظار إلى أن تهدأ. ما إن يتاح لها الوقت لتفكر، ستدرك أنه لم يقصد إهانتها.. وأنه كان يحاول التصرف لصالحها ولصالح العلاقة التي يريدها معها.

لم يخطر بباله أبداً أن إيريس كانت تقترب أكثر فأكثر من الاستنتاج أنها لن تستطيع البقاء في مزرعة برتسوم بعد إلقاء القبض على بلاك ووضعه وراء

القضبان. إنها تحب كوبر، ولا تستطيع القبول أقل من حبه لها، وهي كذلك لا تستطيع رؤية علاقة عابرة بينهما، هي ذروة ما يمكن أن تتوقع منه.. لكن لو بقيت...

***

www.elromancia.com

١١ ـ حلو وخلّ

في وقت مبكر من ذلك المساء، كانت إيريس تذرع أرض المطبخ. كانت قد اتصلت ببلاك لتعطيه المعلومات التي يعتقد أنه يبتزها منها. ثم اتصلت بالشريف روبي لتقول له ما فعلت.. وكان الشريف مع مساعديه في طريقهم إليها.. ولم يكن هناك مجال للتأكد أن بلاك سيستخدم المعلومات هذه الليلة، لكن صبرها كان ينفد مع مرور الوقت.

كان كوبر يجلس متكاسلاً حول الطاولة بعد أن أرخى إحدى ذراعيه على مؤخرة الكرسي المجاور. كانت تحس بعينيه السوداوين تلاحقان كل حركة منها، فأجبرت نفسها على التوقف. طوت ذراعيها بشدة حول جسمها، وأسندت مؤخرتها إلى رف المغسلة.. كان الصوت الوحيد صوت غليان القهوة التي ستستخدم لملء إبريق كوبر الحافظ للحرارة.

قال كوبر معلقاً:

ـ إذا لم تجلسي وتسترخي، سيهترىء مشمع الأرض فوق ألواح الخشب.. وقد تجري في هذه الليلة مطاردة شرسة على أية حال.

استقامت إيريس عن رف المغسلة، ثم توقفت، تدرك أنها كانت على وشك العودة إلى ذرع المكان مجدداً.. بدلاً من هذا، مررت أصابع مرتجفة في شعرها ودمدمت:

ـ كان عليك أنت وروبي أن تختارا مكاناً أفضل لنصب الكمين.

وفكرت أن الوادي القليل العمق الذي أراه لها كوبر لا يبدو أن فيه ما يكفي من غطاء لإخفاء الشريف ومساعديه.. ميزة المكان الوحيدة كانت

مرتفعاً بسيطاً إلى الشمال، لكنه بدا بعيداً جداً عن الطريق العام، وعلى الأكثر، الموقع يعطي بلاك أفضلية كبيرة، وكانت تفضل مكاناً آخر.

أخذ كوبر رشفة متكاسلة من قهوته:

ـ لقد اخترنا المكان إلا أن أحداً لن يفعل شيئاً قبل أن يجمع الماشية ويحملها في الشاحنة. وعندما يصل بها إلى الطريق العام، سيكون مساعدو الشريف في الانتظار.

ـ وأين سنكون نحن؟

لكنها كانت تعرف أنهم لم يبحثوا في إمكانية ذهابها معهم، ولو أنها مصممة على الذهاب.

دون أي اضطراب، قابل كوبر التحدي في عينيها الزرقاوين:

ـ سأكون أنا وروبي على الجياد إلى الجانب الشمالي من المرتفع. حين نسمعه يدخل، سنتبطح على قمة المرتفع لنراقبه.. بعد تحميل الماشية، سنشير إلى المساعدين ليتقدموا إلى الطريق العام، ثم نركب الجوادين ونطبق عليه من خلف الشاحنة.. ولا أريدك هناك إيريس.. فستكون ليلة طويلة باردة.. وقد لا يأتي.

تحولت شفتا إيريس إلى خط مشدود مصمم.

ـ سأذهب كوبر.

وقف كوبر بعفوية، لكنها أحست أنها حركة لتعزيز سيطرته، فاضطربت:

ـ إذا حدث شيء خاطىء، قد يجري إطلاق نار وأنا لا أريد تعريضك للخطر.

تابعت الجدال:

ـ سأكون آمنة كأي واحد منكم.. وما من طريقة تجعلني أجلس هنا طوال الليل أتساءل ما الذي يجري.

تبسم:

ـ سيكون الانتظار هنا أكثر دفئاً وراحة من الخروج وسط الظلام

والهواء البارد يضرب ظهرك.

ـ سأذهب.

تقدم إلى إبريق القهوة، وأعاد ملء فنجانه.. تحركت إيريس نحوه، وقالت لوجهه المتحجر:

ـ أنا ذاهبة برتسوم.. أكان هذا معك أو من بعدك.. سأذهب.

في النهاية، لم تستطع إقناع كوبر.. لكن فيما بعد، ومع وصول الشريف، وجدت فيه حليفاً ولو على مضض.

امتد الانتظار لساعات فوق المرتفع الذي يطل على الوادي الصغير حيث استلقت الأبقار لتنام.. في وقت ما بعد الساعة الواحدة ليلاً، سمعوا صوت شاحنة صغيرة تتقدم على الطريق العام إلى الجنوب من موقعهم.

رمت إيريس ما تبقى من قهوتها، وأقفلت الترموس بسرعة. نظرت إلى السفح الشمالي إلى حيث الجياد.. فأنهى كوبر والشريف قهوتهما بهدوء، بينما راحا يراقبان الأنوار الأمامية على الطريق العام، وينتظران ليريا ما إذا كانت الشاحنة ستتوقف.. توترت أعصاب إيريس وهي تصغي إلى المحرك الضخم يهدر، ثم إلى صوت المكابح وهي تتوقف.

قال كوبر إلى جانبها:

ـ هذه ليست شاحنة تحميل مواشي روبي.

ضحك روبي:

ـ هذا صحيح برتسوم. فإذا كانت تبدو شاحنة مواش، فلن يتمكنوا من التجول فيها دون إثارة الشكوك.. لا بد أنه أجرى تعديلات عليها من الداخل لتستوعب الماشية. وحين يبتعد بالماشية بما يكفي، سينقلها إلى شاحنة عادية خاصة لنقل المواشي.

على ضوء الأنوار الأمامية للشاحنة، شاهدوا رجلاً ينزل من حجرة القيادة.. أسرع إلى الخلف، ثم استدار ليخوض الخندق قرب الطريق.

انبطح الثلاثة أرضاً كي لا يراهم الرجل على نور الشاحنة. طاف الضوء القوي في الوادي تحتهم، وبدأت الماشية تقف على قوائمها، وتتململ

انزعاجاً.. انطفأت الأنوار، فحبست إيريس أنفاسها حين أخذت الشاحنة تتراجع إلى الوراء ببطء.. هست المكابح مجدداً لتتوقف الشاحنة بين عامودين للسياج.. أخذ الرجل الذي كان على الأرض يقطع شريط السياج بسرعة، ثم حشر نفسه بين العمود ومؤخرة الشاحنة ليفتح بابها الخلفي.

عادت أضواء الشاحنة، وخرج منها رجلان وأسرعا إلى مؤخرة المقطورة.. رغم شدة الظلام الذي منع إيريس من الرؤية بوضوح إلا أنها استطاعت تمييز الأشكال الثلاثة في مؤخرة المقطورة فسمعت أصوات الأبواب الكبيرة تنفتح، ثم صوت ألواح خشب تثبت في مكانها لتصعد عليها الماشية.

سمعوا صوت الحوافر فوق الخشب عبر الوادي، ليدل على أن لصوص الماشية يفرغون بعض الجياد ليركبوها من أجل جمع الأبقار.. حين تأخروا في بدء عملهم بشكل غير طبيعي، زاد توتر إيريس.

سألت:

ـ هل هناك شيء خاطىء؟

كان بلاك يقترب أكثر فأكثر من الاعتقال، ولا تعرف كيف ستتمكن من التحمل لو حدث شيء فجأة جعله يتراجع. تحرك كوبر إلى جانبها، واقترب منها.

ـ اصبري.

نظرت إيريس إليه إثر سماعها ابتسامة في صوته العميق. تحرك مرة أخرى، وأحست فجأة أن يدها الباردة مضمومة في دفء يده.

ـ لقد انتظرت طويلاً.. بضع دقائق أخرى لن تكون قاسية جداً عليك.

تكلم الشريف روبي الجالس إلى يساره:

ـ لقد اقترب رايدر من الغنيمة جداً الآن، ولن يتراجع.. وبالطبع، لو كنت مكانه، لقلقت قليلاً من اتجاه الريح.

كانت الريح الخفيفة من الجنوب لصالحهم دون شك. وكانت

الأصوات تصل إليهم من الشاحنة فوق المرتفع شمالي القطيع، لكن أصوات جيادهم لا يمكن أن تصل إلى الطريق.

ضحك كوبر لما قاله روبي، ففوجئت إيريس لأنه والشريف يتمتعان بما يجري.. بينما هي متوترة ومحبطة. وكانا يتصرفان وكأنهما معتادان على نصب الكمائن للصوص الماشية، بشكل دائم.

أعادت أصوات حفيف جلد السروج انتباهها إلى الشاحنة.. وأمام ارتياحها ركب الرجال الثلاثة خيولهم، واتجهوا نحو القطيع الصغير.

جمع الخيالة الثلاثة القطيع، وراحوا يضمونه إلى بعضه أكثر فأكثر وهم يدفعون به إلى الأمام.

واستغرق هذا وقتاً طويلاً، لا بد أن العمل صعب في الظلام. لكن الماشية حملت أخيراً.

أضيئت أنوار المقطورة المعدلة كلها.. حرك اثنان من الرجال قسماً من القطيع داخل المقطورة مفسحين في المجال أمام الجياد قرب الباب.. أخيراً أنهوا تحميل الجياد وأقفلوا الشاحنة من جديد.. وانطفأت الأنوار.

ذهب كوبر لإحضار جيادهم وعاد مع إقفال أبواب الشاحنة. كان الشريف يتصل بمعاونيه بواسطة اللاسلكي.. لكنه فجأة صمت ونظر ملياً إلى مؤخرة الشاحنة. كانت الأجسام الثلاثة قد تحركت حول الجانب الأيمن من الشاحنة واختفت.

همس الشريف بالسباب. ونظرت إيريس إليه بدهشة:

ـ ما الأمر؟

تجاهل سؤالها، ليوجه سؤالاً إلى كوبر.

ـ هل بقي أحدهم في الخلف؟

ـ لا أستطيع القول.

انبرت أضواء الشاحنة مجدداً.. واستخدم الشريف بسرعة جهاز الراديو ليكرر أوامره لمعاونيه ليطبقوا عليهم، لكنه أضاف تحذيراً بأن أحد اللصوص قد يكون في مؤخرة المقطورة.

أعطى كوبر لجام أحد الجياد لروبي، لكن الشريف استدار إلى إيريس قبل أن يركب.

ـ لا يعجبني بقاء أحدهم في الخلف.. قد يكون ذلك رايدر نفسه بقي ليراقب. ولقد قلت لي إنه قد يكون مسلحاً، لذا أريد منك البقاء هنا إلى أن تتأكدي أننا ألقينا القبض عليهم جميعاً.

مد يده يمسك كتفها مركزاً على أوامره وهم يسمعون محرك الشاحنة:

ـ هل فهمت ذلك؟

هزت إيريس رأسها إيجاباً:

ـ أجل.. سأنتظر هنا.

إنهم قريبون جداً من الهدف ولن تخاطر في أن تقف في الطريق.. لقد أرادت أن تكون هنا لتعرف ماذا يجري، لكنها لا تنوي التدخل.

ـ وماذا عن كوبر؟

جعل سؤالها الرجلان يتبادلان النظرات، وجاء الرد من كوبر:

ـ روبي يعرف أنني أفعل ما أريد فوق أرضي، وأتحمل النتائج.

قفز فوق سرجه ينظر إلى وجه إيريس المرتفع إليه.. بعد خفقة أخرى من قلبه، انحنى ليضع يده خلف عنقها ويعانقها.

ـ أحسني التصرف.

همست:

ـ كن حذراً.

ثم وقفت مخدرة الأحاسيس وهو يستقيم وينزل عن المرتفع مع الشريف.

جمعت الأغراض والترموس ووضعتها في السرج.. تفحصت الرباط بسرعة، ثم امتطت الجواد وراقبت الشريف وكوبر يجريان بسرعة عبر الوادي نحو مؤخرة المقطورة.

كانت الشاحنة الكبيرة تتحرك، لكن وزن الماشية فيها كان يبطىء تقدمها. وأخذت عينا إيريس تتجولان بين ما استطاعت أن تراه من الطريق

العام.. وكبتت أنفاسها حين خرجت القاطرة والمقطورة من فوق كتف الخندق إلى الطريق المرصوف.

ما إن حصل ذلك، حتى طافت الطريق العام بالأنوار مع تدفق سيارات الدوريات من كل صوب، وانطلقت الشاحنة إلى الأمام، وكأن أول ما خطر ببال السائق، أن يهرب، ثم توقفت.

كان كوبر وروبي يتقدمان إلى المقطورة حين انفتحت الأبواب الخلفية دون سابق إنذار. رأت إيريس نوراً يلمع، ثم صوت إطلاق نار تردد صداه في الوادي، خفق قلبها بشدة، واستجاب كوبر وروبي بسرعة، يلتفان حول جانبي المقطورة ليتجنبا الرصاص.

دوت عدة طلقات قبل أن يقفز أحد اللصوص من الشاحنة وهو على صهوة جواد.. تعثر حين لامست قوائمه الأمامية الأرض.. وانطلقت البندقية في الوقت عينه، وأدركت إيريس أنها كانت مصوبة إلى الشريف.. تراجع جسد روبي، ثم وقع إلى الأرض الأمر الذي ارعبها.. على الفور، ركلت إيريس جوادها إلى الأمام في ردة فعل مفاجئة.

تعثر الجواد الذي قفز من الشاحنة مجدداً، ووقع بكتفه إلى الأرض. فتدحرج راكبه، لكن دون أذى وفقد قبضته على البندقية.. ثم وقف الجواد، وركض بعيداً.

قاد كوبر جواده كالصاعقة نحو الخيّال الواقع على الأرض.. ورمى نفسه فوقه في الوقت الذي كان فيه اللص يمسك بندقيته ويصوبها مجدداً.. صدم الرجلان الأرض بقوة.. وحثت إيريس جوادها ليسرع أكثر عبر الوادي. كانت البندقية الآن قد ارتمت على بعد عدة أقدام من المكان الذي يتصارع فيه الرجلان، فأوقفت إيريس الجواد قريباً منهما. رأت على الفور أن اللص الذي كان كوبر يوسعه ضرباً هو بلاك رايدر.. فرفست إيريس الركائب من قدميها وترجلت.

كان المعاونون قد أوقفوا الرجلين الآخرين قرب الشاحنة وراحوا يفتشون عن السلاح.. لكنهم لم يعرفوا على ما يبدو أن الشريف كان جريحاً

على الجانب الآخر.. نظرت إيريس بلهفة إلى كوبر، ثم ركضت نحو الشريف.

خفق قلبها بقوة وهي تخر على ركبتيها إلى جانب روبي. كان هناك ما يكفي من النور المنبعث من الأنوار الأمامية للشاحنة وسيارات الدورية لترى أن عينيه مغمضتان، ووجهه شاحب. مدت يدها إلى مقدمة سترته مذعورة مما قد ترى حين تفتحها.

ـ أيها الشريف؟

صوتها أعاده إلى وعيه فحرك رأسه، ثم أنّ متألماً.. وفتح عينيه.. فتحت إيريس السترة بلطف فاضطربت معدتها عند رؤيتها بقعة الدم القاتمة التي انتشرت على معظم مقدمة قميصه. ارتجفت يداها وهي تجبر نفسها على تفحص صدره بلطف لتحدد مكان الجرح بالضبط.

قال الشريف بحشرجة خشنة:

ـ جهة اليسار العليا من صدري إيريس، ولا أظن الرصاصة أصابت شيئاً خطيراً.

كانت ابتسامته المتألمة لمعاناً أبيض وسط الظلام.. فأحست إيريس ببوادر الارتياح، وفتشت في جيوب سترته لتجد منديلاً.. وأكمل:

ـ أحسست أن الطلقة خلعت كتفي.

وشهق حين وجدت إيريس الجرح وضغطت المنديل عليه مع منديلها، لإيقاف النزيف.

ملأت خطوط الألم وجه الشريف بينما استمرت إيريس بالضغط.. وأدارت رأسها لتصيح من فوق كتفها:

ـ الشريف مصاب.

جاء أحد المساعدين ركضاً، فأخبرته إيريس باختصار عن طبيعة الجرح، قبل أن يعود إلى سيارة الدورية ويستخدم الراديو. ثم نظرت لترى أن كوبر وبلاك كانا واقفين على أقدامهما وأن كوبر يلوي ذراعي بلاك خلف ظهره. أسرع المعاون الآخر نحوهما ليضع الأصفاد في يدي بلاك. أومأ كوبر

برأسه لشيء قاله له المعاون، وعاد الأخير إلى السجينين الآخرين.

سأل روبي:

ـ هل اعتقله كوبر؟

نظرت إيريس إليه:

ـ أجل.. كان هذا بلاك.

ـ جيد.. أو ربما ليس جيداً إلى هذا الحد. لقد أراد برتسوم أن يمضي ما سماه ببضع لحظات مميزة مع رايدر.. لكنني قلت له إنني لن أسمح بذلك.

نظرت إيريس بلهفة نحو كوبر، ورأته يجر بلاك نحوها، وعندما وصل على بعد بضع أقدام منها، شد أسيره ليقف.

ـ هل حاله سيئة؟

ـ جرح في الكتف على ما يبدو.

ـ هل هو فاقد الوعي.

ردت إيريس: لا، بل هو واع...

وجر كوبر بلاك إلى جانب الشاحنة حيث كان المعاونون يفتشون السجينين الآخرين. وعرفت إيريس أن السجناء اقتيدوا إلى سيارات الشرطة، بيد أنها لم تستطع أن تُبعد نظرها حين رأت ساقي كوبر وبلاك يتوقفان إلى الجانب الآخر من الشاحنة.

رغم تلهفها لقضاء «بضعة لحظات مميزة» مع بلاك بدورها إلا أن فكرة ضرب أحد بالفعل، أو قيام كوبر بذلك، جعلها تشعر بالسقام. لكن أنفاسها استرخت مع تحرك زوج السيقان.. سمعت كوبر ينادي أحد رجال الشرطة.. واسترخى الشريف روبي أيضاً وهو على ذراعها. نظرت إليه.. فضحك بضعف:

ـ كنت خائفاً من أن يضربه برتسوم حقاً.. فأنا أكره أن أوقفه لذلك.. لكنني كنت سأفعل.

رأت أن الشريف قد فقد الوعي مجدداً، فنادت أحد رجال الشرطة..

كان المنديلان اللذان استخدمتهما ممتلئين دماً، لكن، وحسبما أحست، فقد توقف النزيف. خلعت سترتها بارتباك وغطته بها لتؤمن له المزيد من الدفء.

جاء أحد المعاونين على الفور.. لكنها لم تشعر بأنها أفضل حالاً حتى وصول سيارة الإسعاف وتولي الممرضين أمره.

تشابكت أحداث ما تبقى من الليل معاً، فقد عادت وكوبر إلى المنزل، واتجه عدد من رجاله لجمع الجياد وفتح السياج قبل إطلاق القطيع مجدداً. وتولى مساعدوا الشريف التحقيق.

اغتسلت إيريس، وكذلك كوبر، ثم ذهبا معاً إلى مستشفى المقاطعة. انتظرا هناك حتى انتهى الجراحون من جراحة الشريف. بالرغم من خسارته الكبيرة للدم، كان يرتاح في وحدة العناية قبل مغادرتهما المستشفى.

كان كوبر قد أرسل جارد ورجلين إلى المزرعة حيث أخفى بلاك الجواد بلاكي. حين عادا إلى المنزل كان بلاكي قد عاد إلى حظيرته. ورغم كون إيريس مرهقة، إلا أنها ذهبت لتتفحصه، فرأت أن عنقه تحمل مزيداً من الجروح، فوضعت له مرهماً مضاداً للالتهاب.. راقبها كوبر بصمت، ولم يتكلم أحد منهما.

استنزفتهما إثارة الأعصاب تلك الليلة الطويلة معاً. أحست إيريس بانخفاض معنوياتها وهما يغادران الاسطبل ويتجهان إلى منامة العمال.. سوف تغادر المكان قريباً، وهذا ما جعلها مثقلة القلب.. لكنها لم تشعر بالإحساس بالنصر الذي كان يجب أن تشعر به بسبب اعتقال بلاك واستعادة بلاكي سالماً. كان يمكن أن تكون مشاعرها مختلفة لو أن روبي لم يكن جريحاً، لكنها شكت بذلك عندما استرقت النظر إلى وجه كوبر.

لقد مرت في أوقات عصيبة كثيرة في حياتها. لكن عندما توقفا قرب بابها وراح كوبر يشدها إلى ما بين ذراعيه.. أدركت أن أصعب أوقات حياتها سيكون عندما تترك كوبر.. الذي ينتظرها.

كان الوقت مبكراً بعد الظهر حين استيقظت إيريس، ونهضت لتستحم

وترتدي ثيابها. كانت قد أخذت وقتها في السؤال عن مواعيد الباصات التي تخرج من ردهورس عندما عادت من رحلتها مع كوبر بعد ظهر اليوم السابق.. هناك باص سيغادر إلى «شايين» في الساعة الثالثة. أدركت أن إمكانية الرحيل باتت ضعيفة ذلك أنها تشعر أنه بإمكانها أن تكون على علاقة عاطفية مع كوبر فأسرعت إلى هدر الوقت بتوضيب أغراضها لآخر مرة.

بإمكانك البقاء..

أضعفتها كلماته.. لكن، لماذا؟ لقد صدق كوبر قصتها وأصبح بلاك خلف القضبان، لكن زوال ذلك العائق بينهما لا يعني أن انجذابهما لبعضهما سيتطور إلى أي شيء غير ما يريده كوبر.. «حين نجتمع معاً.. وسنجتمع، أريد أن أعرف أن ما يعنيه هذا واضح بالنسبة لنا معاً».. هذا ما قاله، ولقد فهمت الرسالة.

كانت بالكاد أخرجت ملابسها من الخزانة والأدراج ووضعتها فوق السرير، حين سمعت قرعاً حاداً على بابها. واستولى التوتر على أعصابها، لم تكن قد قررت ما هي أفضل طريقة لتخبر لكوبر برحيلها، لكنها كانت تأمل أن تفاجئه بإعلانها عن الأمر. من حقه أن تعطيه إنذاراً مدة أسبوعين لتركها العمل.. لكنها كانت تعي مقدار الضغط العاطفي الذي يمكن أن يعرضها له إذا لم يكن يرغب في رحيلها.

ابتسمت ساخرة من نفسها للفكرة، لا شك أنها تبالغ في تقدير مدى انجذابه لها والتغاضي عن إنذار الأسبوعين قد يكون جيداً له كذلك.. على أية حال، حين يعرف أنها تفضل الرحيل على الوقوع في علاقة ضحلة دون عمق، سيكون أكثر من سعيد في تركها تذهب.

لقد كان كوبر منفصلاً منذ مدة طويلة، ولا بد أنه أصبح الآن يثمّن حريته كثيراً.. ورجال أقوياء مكتفين ذاتياً مثله، لا يستسيغون الارتباط بسهولة وبما أنها لن تستطيع المخاطرة، فالأفضل لها هو انفصال سريع نظيف الآن.

بعد لحظات من اتخاذها قرارها.. تقدمت نحو الباب تفتحه.

وقف كوبر هناك، وراحت عيناه السوداوان تلمعان عليها من تحت حافة قبعته.

ـ هل استيقظت منذ مدة طويلة؟

لم يكن هناك أي أثر للدهشة عليه مع انتقال عينيه منها إلى الحقائب على السرير.. وقال:

ـ لدي أخبار جيدة لك لو دعيتني إلى الدخول.

جعل الدفء في ابتسامته قلبها يخفق بجنون، فأومأت برأسها باختصار ثم عادت إلى توضيب ثيابها، فدخل ليقفل الباب وراءه.

التقطت إيريس عدة جوارب سميكة ودستها في الحقيبة.. ثم نظرت إليه:

ـ أية أخبار؟ ألا يزال الشريف في حال جيدة؟

ـ بما يكفي.. يقول الطبيب إنه سيغادر المستشفى في نهاية الأسبوع. وسيبقى فترة في الفراش في منزله. لكن مع وجود رايدر وعصابته الآن خلف القضبان، ورفض كفالتهم، لن يكون أمام مساعديه الكثير ليفعلوه.

أحست برجفة عندما تذكرت وقوع الشريف عن جواده:

ـ أنا سعيدة لأنه بخير.

أخذت قميصاً قطنياً وبدأت تطويه.

ـ اتصل أحد المساعدين ليقول لي خبراً اعتقدت أنك قد ترغبين في سماعه.. يبدو أن أحد رجال رايدر يرغب في تسوية لتخفيف الحكم عليه، ولقد قام باعتراف كامل.

ـ وماذا في ذلك؟ لقد ألقي القبض عليهم بالجرم المشهود.

ورمت القميص المطوي في الحقيبة.

ـ ذلك الاعتراف الكامل لم يشمل فقط السرقات هنا، بل شمل اعترافاً مفصلاً حول ما فعله رايدر للإيقاع بك واعتقالك.

جمدت يدا إيريس.. واجتاحتها موجة دوار.. استقامت، واستدارت ببطء نحوه.

وكأنما فهم أنها صدمت فانخفض صوته:

ـ لقد أصر على براءتك من تلك السرقات.. ليس هذا فقط، بل قال إنك لم تعرفي أن رايدر متورط إلى أن أصبح شكك كافياً للحاق به، وجرى اعتقالك بدلاً منه.

بدأت ركبتا إيريس ترتجفان.. وغاصت فوق السرير.. لقد حصلت على الاعتراف الذي كانت تأمل به، والذي كانت شبه مؤمنة أنه لن يحصل.. ارتفعت عيناها لتقابلا عيني كوبر:

ـ أيعني ذلك براءتي؟

ـ يقول مساعد الشريف إن هذا لن يحدث في الحال، وإن هناك قنوات قانونية. سنتصل بصهري حين يعود إلى مكتبه لنرى ما يمكن فعله للإسراع في الأمر.

أغمضت إيريس عينيها تشعر بارتياح قوي جعلها ترتجف.. وتدفقت دموع الامتنان من تحت جفنيها المغمضين:

ـ شكراً لله.. أشكر الله أن كل شيء انتهى.

مرت بضع لحظات قبل أن تستعيد إيريس انفاسها. ارتجفت شفتاها في ابتسامة، ثم فتحت عينين جميلتي الرموش لتنظر إلى كوبر.. بينما راحت أول شعلة ابتهاج تنير قلبها.

لكن كوبر كان قد خلع قبعته ونظر باهتمام إلى الملابس التي كانت توضبها. اختفت ابتسامتها بينما كانت تمد يداً متصلبة إلى رزمة ملابس مطوية، وضعتها في الحقيبة.

كان صوت كوبر عميقاً رناناً وهو يسأل:

ـ كم مرة وضبتِ هذه الحقائب ثم أفرغتها منذ مجيئك إلى هنا؟

كشرت ألماً، لكنها استمرت في عملها.

ـ بما يكفي..

سمعت كوبر يضرب جنبه بقبعته دليلاً على نفاد صبره. حصنت نفسها ضد أية محاولة إقناع قد يستخدمها.. ثم خافت من عدم فعالية ذلك.

أصبح كل عصب في جسمها يصيح فجأة بانتظار ما سيقول.. لكن حين تكلم.. لزمها عدة لحظات لتفهم.

ـ إذن أعتقد أن أول أمر سأحدده بعد الزفاف هو حرق هذه الحقائب اللعينة.

جمدت يدا إيريس.. ثم تحركتا بارتباك لإبعاد رزمة أخرى من الملابس إلى الحقيبة، وأجبرت صوتها على أن يبدو خفيفاً، لكنه كان شفافاً كزجاج النافذة:

ـ وما معنى ذلك؟

ضرب جنبه مجدداً بالقبعة:

ـ سمعتني، متى تحبين أن تخرجينا من بؤسنا؟ الآن؟ أم ليلة العرس؟

وقعت الثياب من يديها. واستدارت ببطء نحوه، تنظر إلى الخطوط الحبيبة على الوجه العنيد.. أحست بتوتره غير العادي وبالتصميم الحديدي الذي حذرها أن أية مقاومة من جانبها ستؤخر فقط ما هو حتمي.

ـ وهل هذا طلب يد؟

هز رأسه:

ـ طلب اليد يتقدم به الرجل حين يريد رداً بنعم أو لا.

ارتجفت شفتاها:

ـ أليس الأمر كذلك؟

ـ بالطبع لا.. أتظنين أنني قد أعطيك فرصة لرفض طلبي؟

وضع قبعته على الكرسي، واتجه نحو إيريس. توقف على بُعد إنشات منها، ونظر إليها من أعلى نظراً لطول قامته.

ـ أعتقد أن هذه هي آخر فرصة أحصل عليها لتنفيذ ما أريد بطريقتي.. وأنا أنوي أن أتأكد من أن تكون لي هذه الفرصة لأذكرها في السنوات القادمة.

شهقت إيريس بغضب مفتعل:

ـ إنك تجعلني أبدو امرأة شريرة.

ابتسم كوبر ابتسامة متعجرفة.. ودون إنذار، أمسك بخصرها، ثم دنا بوجهه منها:

ـ ليس لدي الوقت لامرأة ترتجف حين يرفع الرجل صوته، وتخضع لكل رغباته.

فأنزلت يديها لتلفهما حول عنقه وكتفيه.

همس في أذنها:

ـ أحبك إيريس.. ليس هناك امرأة أخرى مثلك بين عشرة آلاف أخرى. ولن أتركك ترحلين عني.. تزوجيني.

كان أمراً أكثر من أن يكون طلباً. ضحكت بنعومة مع امتلاء قلبها بالفرح، ليعطيه حلاوة أقوى مما تصورت أنه ممكن.. حين لم تستجب فوراً إلى ما قال، رفع رأسه ولمعت عيناه السوداوان في عينيها الزرقاوين.

كانت طبيعة كوبر برتسوم مطبوعة على وجهه.. صلب وحنون.. خشن، مخيف، متعجرف ورجل بكل ما تعنيه الكلمة.. الألفة العزيزة لهذا الوجه الوسيم الفخور، والجذاب الذي لا يقاوم للرجل نفسه، جاء بموجة حب قوية جعلت الدموع تلسع عينيها.. أحست أنهما متماثلان بطريقة بدائية مجنونة.

همست:

ـ وأنا أحبك كذلك.. كوبر.

ووضعت راحة يدها على فكه، وأكملت:

ـ لكن في يوم ما، وبعد أن نتناطح بالرؤوس لمدة طويلة، وتبدأ التفكير بأن الحياة قد تكون أكثر بساطة بكوني أكثر خضوعاً، سأذكرك بيوم تركتك تنفذ ما تريد وتزوجتك.

انفجر كوبر بضحكة من القلب.

ـ لا شيء معك يمكن أن يكون مملاً. ولن أصل إلى نهاية حياتي وأنا أشعر أنني فقدت كل التحدي والمرح ونكهة الحلو والحامض في عيشي أيامي معك.

تلاشت ابتسامته وأكمل بصوت أجش:

ـ لقد جئت بشيء آخر معك حين وصلت إلى هنا.. شيء هش أنثوي، شيء أحتاج إليه كثيراً كما أحتاج للحلو والحامض.

همست: كوبر.

واشتدت ذراعاها بقوة حوله، وأخذ قلبها يغني لكلماته. تآلف الإحساس بالاستقرار أخيراً مع الحب الذي تشعر به نحوه.. لقد استعادت المنزل والإرث اللذان ظنت أنها فقدتهما إلى الأبد بشكل عجائبي.. وأحست بآخر مراراتها تتلاشى.

تحرك كوبر، فرفرفت الدمع وابتسمت له، وظهرت ضحكة جانبية على وجهه:

ـ إذن، ما رأيك بالأمر؟ هل ننتظر إلى ما بعد المراسم، بعد أسبوع من يوم السبت القادم؟

انفرجت شفتاها دهشة:

ـ أسبوع بعد يوم السبت؟

ـ بالتأكيد حبيبتي، أليك وبروك سيعودان من عطلتهما بعد يومين. ولقد تطوعت اليانور وشقيقاتها الأربعة للمساعدة في التحضير للعرس.. لذا فكرت أن لا جدوى من الانتظار.

هزت رأسها:

ـ هذا وقت لا يكفي.

ـ هذا كاف إذا كانت إحدى الشقيقات تعيش من صنع فساتين الزفاف، والأخرى تصنع الحلوى الرائعة، والاثنتين الباقيتين اهتمتا لوحدهما بست حفلات زفاف كبيرة لبناتهن.

ضحك لذهولها:

ـ فوق كل ذلك، أعرف أنك ستجعليني أنتظر حتى ليلة العرس.. وأسبوع بعد يوم السبت هو كل ما أنا مستعد له.

لمع الخبث في عيني إيريس:

ـ أية فرصة لاستباق ليلة العرس سوف أقضي عليها برتسوم.

ودفعته عنها مداعبة.

وكانت نتيجة المداعبة أن اشتعل الشوق بينهما بسهولة، ليتحول إلى نار بيضاء وهاجة.

* * *

www.elromancia.com
مـــر مـــوريـــة